

الدَّوْلَةُ الدَّرَازِيَّةُ

الدَّوْلَةُ الدَّرَازِيَّةُ

المترجم

حافظ أبو مصباح
سنة ١٩٦٧

المؤلف

يحيى دهستان پير
سنة ١٧٦٢

المكتبة الحديثة
للطباعة والنشر
بيروت

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٩٨٣
المكتبة الحديثة للطباعة والنشر - بيروت
محطة المزرعة شارع زيدان
تلفون ٣١٥٩٢٨

مقدمة

بقلم المؤرخ المتعمق الثقة

الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك

اخي الكريم المفضل الشيخ حافظ ابي مصلح ،
جزاك المولى خيرا ووهبنا من لدنه حكمة وصلاحا .

قد اقصر في الاعراب عن شدة ارتياحي الى
تكليفك اياي كتابة هذه المقدمة .

من الاعماق اشكر لك ثقتك معتذرا عن ابطائي .
فلاشغال التي جعلتني طائر اجواء وجواب آفاق ،
طوال الاشهر الاربعة الاخيرة ، حرمتني الانصراف
الكامل لكتابة المطلوب . وحرمتني مرافقة علوية
« التوحيد » والعيش مع رموزه النورانية وانا اطير
في سماواته . فكان اني وضعت في الشرق بعض
هذه « الدراسة » المتواضعة ، ووضعت بعضها الاخر
في الغرب !

لم يتح لي ان اكتبها كلها في حالة استقرار
وفراغ ، فنشأ عندي قلق على ان لا اكون وفيت
الموضوع كما اشتهي . (لا كما يستحق . فهذا
الاشتهاء الاخر عسير جدا ، ان لم اقل انه مستحيل
التحقيق في عصر بعدنا فيه عن شعشعائية التقشف
التوحيدي ، ناهيك بوضعي الخاص . . . عنيت انقفال
باب الدعوة دوني) .

ثق بان الذي اشتهيه كريم وجميل وحق .
واي مشتهى اكرم واجمل واحق من ان يعرف اللبنانيون
جميع اللبنانيين ، مذهب التوحيد الذي تسميه العامة
بالدرزية ، تسمية خطأ من الواجب ان تبطل .
للمناسبة اقول : ان الموحدين عرفوا في الماضي
باسم « الأعراف » ايضا ، كما اطلق على الذين في
حوران ووعرائها لقب « آل معروف » . ثم كان من
حظ هذا اللقب الانساني ، ومن حظ الموحدين ، ان
ذاع على اقلام الصحافيين والادباء لقبا لجميع اهل
المذهب في لبنان وسورية وفلسطين ، فانتشر في
العالم العربي مطاردا التسمية الخطأ (الدروز) - وليته
استطاع ! - فصار الموحدون يعرفون ببني معروف
ويعرفون بالدروز على السواء .

هؤلاء الاخوان مظلومون - والارجح انهم الظالمون
انفسهم - فآكثر ابنائهم « الجهال الذين لم يتسلموا
دينهم » بعيدون عن مذهبهم في جوهره ومراميه ، وهم
مظلومون ايضا بان مواطنيهم يجهلون حقيقتهم ،
ومظلومون بان العالم كله - باستثناء فئة قليلة جدا
انعم عليها بالاطلاع على حقيقة هذا المذهب ، قليلا
او كثيرا - وفي بعض نواحي تلك الحقيقة صور في
الروحانية رائعة - قلت : ان العالم كله لا يعرف
شيئا عن مسلك التوحيد ، وان عرف فهي افتراءات
اشاعها خصوم الفاطمية ، من المتعصبين وضيقسي
الصدور ، ولا سيما بعد الكشف ، وبعد ثورة الفوغائية
في القاهرة على الدعاة ، وسفكها دماءهم ودماء
اتباعهم في المسجد العتيق (جامع عمرو) في تكبة
السابع من شهر حزيران سنة ١٠٢٠ .
ارجح ان ازدياد الغضب على اهل المذهب ، بعدها ،
لم يكن سببه القول بان الدعاة يطلبون تأليه الخليفة
الحاكم بامر الله بقدر اضطراب المتزمتين والمتحجرين
الذين اغضبهم دخول النهج الفلسفي على البحث عن
الله تعالى ، وعلى تفسير آياته كتابه الكريم تفسيراً
باطنيا ، وهو النهج الفاطمي الذي واجه الاسلام قبل

عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، وقبل الكشف .
اخشى التوغل ، فالابتعاد . . وما سبيلي الا ان
اقول ما استطعت معرفته من مذهب التوحيد ، وعنه ،
بقدر ما سمحت لي « الاستطاعة » بمختلف ابوابها ،
وبقدر ما يسمح به بلد شرقي - وان هو لبنان -
لا تقر تربيته ، ولا تخلفه ، حرية الفكر كاملة ، ولا سيما
في شؤون الدين . . سبيلي ان ابوح بما وصلت اليه
بعد مشاق متوقعة ، وحتمية من هذه المعرفة . وقد
حان لنا ان نمزق البرقع الذي اضطررنا الى التحجب
به في ايام الانحطاط والظلام ، وان نعلن رايًا صريحًا
في مذهب يحترم جميع الاديان السماوية ، ويأمر
بالفضائل المثلى ، فنكشف عنه دون ان نمس تأويله
الباطني ، ما دامت الحساسية الدينية السطحية ،
نعم : السطحية ، هي المسيطره على جميع الشرقيين .
هذا الراي الصريح الذي اطالب باعلانه يهمني
ان يرتفع صوتًا جاهرًا بالحقيقة والانصاف ، وتعويب
الاهام ، وان يخرج من فم ماروني - بل من ضميره
وقلبه - لعله يستطيع محو ما علق في ذهن قومه
من مزاعم غير صادقة . .
لا اعرف ما بسطه هذا الكتاب في جزئه الاول

بعنوان « اصل الدروز » . وقد اعلمتنا انك صرفت عنه النظر « لما اعتوره من اخطاء تاريخية (?) ومسا تضمنه من معلومات مغلوطة (?) لا تستند الى اساس من الصحة » . (ص ٣٣ ، في الحاشية .) فما هي تلك الاخطاء ؟ ومن ناقش فيها ؟ ومتى عرضت على النقد ؟ ومن حكم عليها ؟

افلا ترى يا سيدي صحيحا ان تبقي كلام المؤلف كما هو ، ثم تصوب اخطاءه واغلاطه ؟ (الا اذا كان كفرا ولا انسى اننا في الشرق) !

ذهبت الى ما قلته لان التصويب مفتاح التعريف . وانت تعلم يا حضرة الاستاذ ان من النادر ان نجد اليوم باحثا - وان موحدا قحا - يفوص على درر المسلك ولا يتعثر في التنزيد ، فكيف ببوجيه دي سان بيير مؤلف هذا الكتاب الذي عنيت بتعريبه ، والرجل غريب الوجه واللسان ، والفكر والروح ، وكتابه صدر سنة ١٧٦٣ ؟

واقول ايضا : ان كل تصويب (لاي كلام جاء فيه خطأ عن مذهب التوحيد) لنا فيه نفع ، وكل بحث فيه ، لنا منه نفع . ذلك لان باب الوصول الى حقيقة المذهب لا يزال موصدا . والساعي الى معرفة تلك الحقيقة

المكتومة يشبه رجلا في غرفة مقفلة لا يرى من الدنيا
الا ما يقع عليه نظره ضمن الجدران الاربعة . فاذا
خرج الى الشرفة شاهد المارة في الشارع ورأى
المنازل المجاورة . فاذا طلع الى السطح شاهد جبالا
وشوارع ومنازل واناسا اكثر . فاذا حلق في طائفة
وقع نظره على اودية وبحار ومدن وسهول حتى مد
النظر ، ولكنه لم يشاهد الا النزر القليل ، ولم ير كل
شيء . . . فهناك ، وراء مرمى العين ، بلدان وقارات
بعيدة ، وقصبة عنه . وهيهات ان يقع نظره عليها !
فهل باستطاعتنا الزعم اننا نعرف المذهب معرفة
كاملة ونحن لا نبحث ، ولا نصوب ، (و « لا نعلم ») وانما
نحن قابعون في غرفتنا الضيقة المقفلة ضمن جدرانها
المظلمة !

ان الكتاب الذي تجشمت عبء تعرييه يا سيدي
الفاضل - احسن المولى اليك ! - ظل طوال دهرين
كاملين احد مراجع الاستخبار للفرنسيين ، ولسواهم
من الغربيين ، الذين غازلتهم امانسي الاستفادة من
ممراتنا ، وتجارتنا ، وصناعتنا ، منذ ذلك الزمان ،
وخصوصا في حملة نابوليون على الشرق ، وفي فتنة
السنة الستين المشؤومة التي كنا جميعنا فيها

حطب المحرقة لمطامع الاتراك والفرنسيين والانكليز .
ولاحقاد المتزعمين الزمنيين والدينيين (١) في هذه
الديار . ثم صار الكتاب المذكور مرجع استخبار
للائتداب الفرنسي ، ولكن بدون جدوى . . وصارت
نسخه نادرة جدا لا تصل اليه الايدي ، فلم استطع
الحصول عليه على رغم من جدي في التفتيش عنه .
ولم اعرف عن مراميه الا انه يثني على اللبنانيين ، ولا
سيما على « الدروز » بيت القصيد فيه ، ويتسبد
بالحكم المعني ، فصان يشوقني الاطلاع عليه ، ولكن
هيهات !

ومن غرائب « حظ » هذا الكتاب ان قراءه

١ - نشر الاستاذ يوسف يزبك سنة ١٩٣٩ كتابا
بعنوان « ثورة وفتنة في لبنان » هو مخطوطة
لأنطون ظاهر العقيلي ، عثر عليها في احد بيوت
كسروان وهي موضوعة باللغة العامية ، تتضمن من
الحقائق عن أسباب « الستة الستين المشؤومة » ما لم
يتسن للغايات السيئة ان تخفيه ، وعلق الأستاذ
الوطني على المخطوطة تعليقات املاها عليه اخلاصه
القومي ورغبته في توضيح ما خفي من الوقائع .

اعجبوا به في حين ان صاحبه (او بوجيه دي سان بيير الذي قيل انه صاحبه) لم يعرف لبنان .
وانما جمع معلوماته من مختلف المصادر ، وحرص على التفتي ببطولة الشعب الصغير الاريحي فاحتطب من كل وادعصا ولسنا الان في هذا الصدد . ولكن اخشى ما اخشاه ان يكون صوته صوت عيسو ، ولمسه لمس يعقوب ، على ما روته التوراة في قصة اسحق . وبعد ، فلنحاول الولوج ، متحررين من جميع القيود :

يعتبر مسلك التوحيد ، في جوهره وانطلاقه الاول ، محاولة عقلية لتفهم الايمان والحقائق الالهية ، والتقرب تدريجا من الله ، ومشاهدته .
من هذا المنطلق قيل : رأس الايمان والتقوى معرفة الله .

ولعل امحوتب IMHOTEP العلامة الذي اختصر الحكمة المصرية ، والذي بنى هرم السقاره ، فرفعه المصريون الى مصاف الالهة ، كان اقدم « معلم » رجع اليه عقلاء التوحيد ، واعتبروه الاعتبار الاسمي حتى التقديس .

ولقب اليونانيون امحوتب بهرمس الهرامسة (اي

عالم العلماء) وغلب اللقب على الاسم الاصيل حتى صار علما لصاحبه .

وفي بعض الكتب ان هرمس ((المثلث بالنسبة والحكمة والملك هو الذي امر بالدعوة الى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق ، وتخليص النفوس من العذاب ، والحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل ، الخ . .))

وقيل في هرمسي ايضا : انه هو ، هو ، النبي ادريس الذي قص القرآن قصته .
والعلماء الذين يعنون اليوم بالروحانيات . في اوروبا واميركا ، يعتبرون هرمس اول من بحث على الارض في معرفة الروح ، وحاول تفهم غوامضها .
وقد انشأ هؤلاء العلماء جمعية لهم في لوزان (1) تضم الباحثين الروحانيين من جميع انحاء الارض . اطلقوا عليها اسم ((اصدقاء هرمس)) وهي تصدر كل سنة كتابين عنوانهما هرمس ، تنشر فيهما دراسات ونصوصا روحانية ، مع سجل عام يحتوي على احداث المطبوعات التي صدرت في هذا الموضوع .

أشرت الى ما تقدم ليعلم من يجهل ان المرجع
الاول لعقلاء مسلك التوحيد هو الذي صار اسمه
شعارا لعلماء الروحانية الحالية في العالم ، فمن حقنا ،
نحن اللبنانيين ، ان نعتز بهذا !

وبعد هرمس جاء حكماء كثر . في اليونان ،
وفارس ، والهند ، والصين ، تأثروا تعاليمه وتأثروا
بها ، واعتبرهم الموحدون اولياء مكرمين ، ومن ابرزهم
تلاميذ فيثاغورس وافلاطون وارسطوطاليس ، ومن
اليهم .

المذهب التوحيدي ميتافيزيكا :

وباستطاعة من يحاول تفهم مسلك التوحيد ان
يدرك مراميه بالرجوع الى مبدأ « الانبثاق المتتابع »
لمؤسسه افلوطين الاسكندري الذي عاش في القرن
الثالث بعد المسيح (٢٠٥ - ٢٧٠) وتلقح العرب
بفلسفته الى حد بعيد دون ان يدروا (١) فافلوطين
يذهب الى ان الحكمة - وهي ، هنا ، غير بعيدة
أبدا عن جوهر التوحيد - واحدة في كل زمان ومكان ،
لا تتجزأ ولا تختلف في الجوهر . ذلك لان المصدر

١ - يوحنا قمير : ص ٦٢ و ١٠٥

(الله) واحد ، والعقل الارفع (ارادة الابداع)
واحد ، والحقيقة واحدة ، ووحده الكشف عن
الحقيقة واحدة ، والروح واحدة ، والعقل البشري
في استيحاءه من العقل الارفع هو ايضا واحد يدرك
الحقيقة مباشرة في الله .

من نور العقل الارفع ابدعت الكائنات جميعا .
وبهذا يبدو ان العمل الارفع هو العلة الاولى للوجود
(علة العلل) : منه تنبثق الروح (النفس) ومن الروح
تنبثق الكلمة - السابق - ، ومن الكلمة تنبثق
النفوس الناطقة ، ومن هذه النفوس ينبثق التكوين
(مادة الوجود) .

((الحمد لمن ابدعني من نوره ، وايدبي بروح
قدسه ، وخصني بعلمه ، وفوض الي امره ، واطلعني
على مكنون سره)) .

وكذلك استقى حكماء التوحيد من بعض مناهل
مذهب العرفانية Le Gnosticisme الذي كان اتباعه
يقولون بانهم « اوتوا معرفة طبيعة الله وصفاته معرفة
كاملة ، متعالية » وهذا المذهب الفلسفي الديني
استوحى من افلاطون اليوناني (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م .)
ومن افلوطين الاسكندري الذي اشرنا اليه .

من رأي أفلوطين ، مثلاً : « ان كل شيء صدر من
الله الواحد بطريق الانبثاق المتتابع . وكل شيء اليه
يعود بطريق آخر هو طريق الرجوع » .
والله الواحد هو كل الاشياء . وليس هو
احد تلك الاشياء .

« وتحديد الواحد حصر له : فليس هو احد
الاشياء التي تصدر عنه ، ولا يمكن وصفه بوصف
خاص : فهو ليس الموجود ، ولا الجوهر ، ولا الحياة .
انما هو في تعاليه اسمى من ذلك كله ولا يستطيع
تشكيله بشكل ما ، فهو فوق كل تعريف .
» ليس هو بفكر ، ولا ارادة ، لان الفكر يستلزم
شيئين : مفكر (بكسر الكاف المشددة) ومفكر فيه
(بفتح الكاف) . والارادة تستدعي الحالة غير الحالة
التي هي فيها . وذلك امر اثنيني والله واحد . ولا
نعرف سوى انه واجب الوجود ، تام الكمال ، لا
يحتاج لشيء خارجي ، بل يفيض خيراً وينتشر ،
فتتولد عنه جميع الكائنات التي تختلف كمالاتها
بحسب قربها من ذلك الفيض الالهي ، او بحسب
بعدها عنه .

واول انتاج لهذا التوليد هو العقل « نوس » ،

اكمل شيء بعد الواحد .
« والنفس تحتوي على العالم الحسي بالقوة .
ومنها تصدر الموجودات ذات الاجسام . وهذا هو
الانتقال من اللانهائي الى النهائي . فالله والجسم
على طرفي درجات الكمال . ان الله واحد والجسم
متعدد . بيد ان الجسم عليه الطابع الالهي لانه
تشكل باشكل الله المنعكسة عليه . والكائنات ذات
الاجسام مركبة من مادة ومن صورة : الصورة
تتضمن حقيقة الموجودات ، والمادة هي الشيء الذي
تكونت منه الاجسام » .

العودة الى الله :

هذا الانبثاق المتتابع - حركة التسلسل - تقابله
حركة اخرى رجوعية : ففي كل شيء صدر من
الواحد ميل قد يكون مبهما او مدركا لذاته انه يعود
الى ذاك الواحد . وهذا الرجوع الى المصدر الالهي
يحصل عن معرفة ، اذ ان لكل موجود كمالا . وبهاتين
الحركتين - الصدور والنكوص - الانبثاق والعودة -
يتجدد العالم الحسي على التوالي . وبحركتي الطرد
والعكس تصدر الاشياء من النقص الى الكمال . فهي

من الله والى الله تعود . (فهمي : ص ١١٧ وما يليها) .

أما النفس المنبثقة من العقل الارفع فتتجه هي ايضا نحوه دائما (كما يتجه العقل الارفع الصادر من الله الى الله) . . وفي هذا يقول افلوطين ايضا :

« تصور نقطة مركزية تحيط بها دائرة مضيئة ، وهذه الدائرة تطوقها دائرة أخرى مضيئة ايضا ولكن نورها مقتبس من النور الاول . وخارج هاتين الدائرتين دائرة ثالثة بعيدة عنهما ، ولكنها ليست مضيئة بذاتها وانما تستنير بضوء اخر ليس منها » .

ويقول افلوطين : « ان الكمال اصل الوجود . وكل موجود يميل الى الكمال ، فالعالم وجد للخير . اما الشر الذي نلاحظه في الكون فمصييره الى الزوال شيئا فشيئا وفقا لسنة الترقى من الناقص الى التام » .

... غاية الحياة ان تسعى لتعود الى التمتع بالمشاهدة الالهية بواسطة تطهير النفس . لذلك وجب ان تجرد ذاتها من الشهوات البدنية والميل

الحسي بممارسة الفضائل . ويقول افلوطين ان
هذه الفضائل اربع : العفة والعدالة والشجاعة
والحكمة .

« اغمض عيني جسمك وافتح عيني روحك ،
تشاهد الجمال الازلي ، وتحظ بالخير المطلق .
وبواسطة الانخراط الروحي تتحد النفس بالله
الواحد » (١) .

(١) - المراجع :

تاريخ الفلسفة من اقدم عصورها الى الان -
تأليف حنا اسعد فهمي : المطبعة اليوسفية . مصر .
يوحنا قمير : اصول الفلسفة العربية (ط ٢)
- منشورات المطبعة الكاثوليكية . بيروت .

La Philosophie de Plotin par Emile BREHIER
Librairie philosophique . Jevrin PARIS

وهذا الكتاب مرجع نفيس ، ولا سيما في فصوله
ال ٤ و ٥ و ٦ و ٧ .

مذهب الدروز والتوحيد : تأليف عبدالله النجار
- دار المعارف بمصر .

اضواء على مسلك التوحيد : بقلم الدكتور سامي
نسيب مكارم - دار صادر ، بيروت .

وبعد ...

لعلني استطعت في هذه الخطرات السريعة
ان ارسم صورة ، وان صغيرة ، عن التقارب بسين
مسلك التوحيد في انطلاقه الاول وجوهره ، وبين
الفلسفة اليونانية (الافلوطينية منها بالتخصيص)
حتى اصل الى جواب صريح ، صادق ، يرد على
السؤال الاتي :

— وهل مذهب التوحيد دين ؟

فأجيب : نعم . نعم . نعم ! وهو ، الى فلسفته
وروحانياته ، يمتاز بفضائل انسانية سامية ، ذات
مسحة باطنية ، عقلية ، تهدف الى الخير والمعروف .
اهمها في نظر الموحدين : فضيلة الصدق (**فهى الايمان**
والتوحيد كاملا) ، ومعها فضائل العفة ، وطهارة
اللسان ، والقناعة ، وضبط النفس ، والترفع
عن الدنيا ، الخ ...

واذكر لك ، هنا ، رايا لصديقي الكاهن العالم
الجليل — المسيحي الحقيقي — الاب يوسف يمين
(اهدن) قاله لي وهو يتفضل بمساعدتي على تفهم

مذهب العرفانية ، قال حفظه الله :

ـ ((الصالحون جميعا ، ايا كان معتقدهم ، يذهبون الى الله تعالى . ان وحدة الغاية والوصول والالتقاء الاخير تشبه الهرم . ان الانبثاق المتسلسل ، فسي العودة الى المصدر ، طرق عديدة ومنوعة بسبب اختلاف الامزجة والامكنة والازمنة والتربية الاجتماعية وما اليها . اذا وصل كل صاحب عقيدة الى نهاية مطاقه (اخر حدود عقيدته) سعدا ، فلا بد له من ان يصل الى قمة الهرم حيث يلتقي الذين وصلوا اليها على طرقهم الخاصة اذ اكملوا صعودهم في تعمق عقيدتهم . . . الاختلاف ، اذن يرجع الى تعدد الطرق . اما الغاية (الالتقاء) فواحدة موحدة . .)) .

ولن نسمع انبل من هذا الكلام !

وبين مسلك التوحيد والاديان الاخرى توافق في اتجاهات واهداف كثيرة . لا مجال لبسطها في هذه العجالة .

ومعلوم ان الفاطمية نبعت من الاسماعيلية ، الشيعة ، الاسلامية ، ويقول الدكتور سامي نسيب

مكارم (١) في هذا الصدد : « ... استجاب هذا المسلك التوحيدي الى الاسلام واندرج فيه ، غير انه كان مستبطناً ايضاً في الشرائع التي تقدمت الاسلام » .

واستجابة معتقد التوحيد للاسلام كانت ، على الاخص ، في العهد الفاطمي . والخليفة الحاكم بأمر الله رعاه . وانبرى لتوجيهه وتنظيمه داعيته الاعظم ، حمزة ، القائد الفذ الذي طور الانبثاق المتسلسل كله في تعاليمه ورسائله وكان السند الاقوى للمذهب . ثم اكمل التوضيح والتوجيه الداعية العبقري الشيخ بهاء الدين علي الطائي في رسائله . وهو ركن بين واضعي الفلسفة التوحيدية .

(١) « اضواء على مسلك التوحيد » : ص ٨١ ، وفي هذا الكتاب ايضاً يقول لنا المؤلف ان اسم امحوتب ورد في إحدى المخطوطات معرباً هكذا : « ذي امحت به » - ص ٤٩ - فلتقارن بكلمة « ذي معة » التي تشير الى الامام الجليل قائم الزمان ..

كان من الحق ان اذكر موضوع التقمص وهو
من صلب المعتقد ، وموضوع التصوف ، والعلاقة
باخوان الصفاء ، وما يتبع هذه المواضيع الخطيرة
من اراء فلسفية يقف الفكر امامها خاشعا ...

ولكنني اظلت ، والمطلوب تقديم الكتاب لا
الاشتراك في تاليفه !

بقي في نفسي ان اشكر لك يا سيدي الفاضل
عملك الكريم في هذا التعريب . بيض الله وجهك ،
وقواك في اتباع سيرة العباقره من ال ابي مصلح
الاکرمين . ورجائي ان يقدر الموحدون جهلك !

يوسف ابراهيم يزبك

باريس - الحدث

ايها الاخوان ،

ان ما نرمي اليه ، من نشر هذا الكتاب ، هو ان نسني لابناء عشيرتنا الامام بصفحة من تاريخ الدروز يجهله الكثير منهم ومن المواطنين الاخرين ، راجين ان يكون لهم من ذلك فائدة ، وان يكون هذا العمل دافعا لغيرنا من الاخوان ، الى نقل كل ما يقال فينا بصدق واخلاص ، فلا نبقي على جهل بما يكتب عنا ، ولا سيما في الخارج .

لقد كلفنا هذا العمل جهدا ومثابرة استغرقت الكثير من وقتنا ، وخصوصا ان احدنا الذي تولى الترجمة ، كان يكثر من البحث والمراجعات ، والتدقيق كي يخرج الكتاب مستوفيا الشروط ومؤديا الفائدة التي نرجوها لقومنا خاصة ولوطننا بصورة عامة ، لان الفترة التي تناولها المؤلف بالبحث كانت صفحة مشرقة من تاريخ لبنان ، يكفي انها جمعت اللبنانيين كلهم ، على هدف واحد هو تعزيز كيان لبنان . وثقتنا بان القراء على مختلف مذاهبيهم ، سيحنون فائسدة جليلة ، هونت علينا العمل ودفعتنا الى بذل الجهود في سبيل الغاية النبيلة ، التي هي ابراز حقيقة التاريخ المعني الكريم ، وذلك عن طريق ما يقوله فيه كاتب غريب لا يمكن ان ينسب اليه التعرض او الانحياز .

ان لسان الدروز ليسكت عن التحدث بافعالهم واعلان مآثرهم ، وان يكن لم يسكت يوما عن قول الحق . وعسى ان ينال عملنا في نشر هذا الكتاب ، الرضى والاستحسان لدى العموم ، لان فائدته للعموم .

الناشران

مقدمة المؤلف

حين آليت على نفسي ان انير القراء ببعض المعلومات عن شعب
تهم الفرنسيين معرفته دون شك ، كانت امنيتي ان ارضي رغبة
الوطن واحقق امال المسؤولين .

ووطن الدروز ، الرائع في طيب مناخه ، وخصب ارضه ،
وجودة محاصيلاته ، وحكمة دولته ، يضع امام المرء صورة واضحة
عنه تعطي فكره وقلبه ايضا ، منافع ثمينة .

والتفصيل الصادق عن مختلف حالات هذا الشعب ، منذ
نشأته ، وعن الثورات التي اوقد نارها ، عمل مفيد يجب ملاحظته
لانه يرضي فضول القارئ ارضاء تاما .

والصعوبات الجمة التي جعلت اتمام عمل كامل لهذا المخطط
نوعا من المستحيل ، حملتني على كتابة هذا الموضوع بشيء من
الايجاز .

وسأوضح في الكتاب الاول على الاقل أصل الدروز (١)
متحدثا عن بعض الثورات التي كان لها تأثير شديد في تبديل مقدار
ثرواتهم . اما في الكتاب الثاني فسأحاول ان ابين وضعهم
الحاضر ، على ان اعالج في الكتاب الثالث مختلف نواحي تجارتهم

١ - صرفنا النظر عن الجزء الاول وعنوانه « اصل الدروز » لما اعتوره من
اخطاء تاريخية وما تضمنه من معلومات مغلوطة لا تستند الى اساس من الصحة .

كي اظهر اهميتها بالنسبة لفرنسة (١) .
ويرجع الفضل ، في العناية بتاريخ الدروز ، الى بعض
العلماء المتعمقين في اللغات الاجنبية الذين بحثوا في المخطوطات
اليونانية والعربية والسريانية فتوصلوا الى استكشاف الخيط
الاول الذي مكن من الالمام بكل التفاصيل عن هذا التاريخ .
وما كنت اريد قوله هو ان تاريخ الدروز كان مزيجاً من
آراء مختلفة لبعض المؤلفين المشهورين الذين كتبوا بلغتنا
الفرنسية .

وبما ان هذه الابحاث لم تكن كافية لابرار هذا التاريخ
والكشف عن حقيقته فقد اعتمدت ايضا على مذكرات قيمة
وضعها ابن اخت بطريك انطاكية (٢) الذي عاش في بلاط الامير
الدرزي . وتلك الابحاث ، مع ابحاثي الخاصة ، سهلت لي معرفة
الشعب الدرزي الجدير باهتمامنا .

بيجي ده سان بيير

١ - يتضح من هذه الجملة ان فرنسة كانت تنظر الى لبنان ، منذ القديم ،
نظرة الطامع وتهتم بجميع المعلومات الدقيقة عنه وعن طبيعته ومزايا اهله كي تضع
الخطط ، على اساس هذه المعلومات ، لبسط سيطرتها عليه والاستفادة من موقعه .
٢ - البطريرك الذي يعنيه المؤلف هو البطريرك جرجس عميره الماروني الذي
نولى منصبه سنة ١٦٣٣ ، اما اسم ابن اخته فهو سركيس الجمري وهو صاحب
المذكرات ، وكان من خريجي المعهد الماروني في رومة ورسم كاهنا سنة ١٦٣٥ ،
وشغل منصب مطران دمشق ومطران قبرص .

تكاثر الشعب الدرزي وتوسعه

كان لابد للشعب الدرزي ، الذي نشأ على الحرب واستمر في محاربة السلطان المصري الذي انفصل الدروز عن حكمه ، من ان يتكاثر وينمو مع كل الايام .

وكان هذا الشعب منهكاً ابداً اما بالنشاط الزراعي في السهول كي يوفر لنفسه سبل العيش واما بمطاردة العربان كلما هاجموا بقصد الغزو والسلب .

وكان نظامه شعبياً ، فقد اختار قواداً للشرطة الداخلية ، وآخرين للحروب . وكان عدد الجنود يزداد بنسبة تكاثر الذكور فيه ، وكان هم الاولاد الدروز ، منذ نشأتهم الاولى ، ان يتمرنوا على الحروب ، ويتدربوا على استعمال السلاح .

واول عهد نعم فيه الدروز بالراحة كان في ايام الحملة الصليبية في آسية ، حوالي اواخر القرن الحادي عشر . ولكن سرعان ما سبب هؤلاء الصليبيون لهم - كما سنرى - خوض اشد الحروب وحشية ، واكثرها سفكاً للدم .

وبعد مضي قرن تقريباً جعل الصليبيون والكفار (١) الارض المقدسة مسرحاً لحروبهم . واستمر الفريقان في الحرب ، حيث كان يحالف النصر هذا مرة ويمنى بالهزيمة ذاك مرة اخرى ، والعكس بالعكس ، مدة من الزمن .

١ - يعني المؤلف « بالكفار » ، المسلمين . . .

واخيرا طردت القوات المصرية الصليبيين ، فعادوا الى المرافىء
التي اقلعوا منها مفعمين بالغبطة ، اذ تيسر لهم الانضمام الى
عياهم ، ولكنهم كانوا يندبون انكسار القوات المسيحية .

لم يكن الرضى يعم جميع الفرنسيين ، وقد نقلنا من قبل
عن لسان احد المؤرخين ، ان فرقة كان يقودها « الكونت ده
درو » (١) كانت تقوم بدور الحامية للقوات الصليبية . ثم
اضطرت الى الاعتصام بالجبال ، هربا من العبودية ، بعد ان
طاردها وحدات الاعداء الخفيفة .

وكان جبل عين جدي (٢) اول مكان لجأ اليه هذا القائد ،
اما بعامل الحكمة او بتأثير الضرورة الملحة .

وهناك تحصن مع رجاله الشجعان ، وتمكن من تعزيز
قواته ، وهو الذي عرف ، بقدرته ومهارته ، كيف يفقد الاعراب
املهم في اخضاعه . واثققت سنوات عدة والفرنسيون الاقوياء ،
الثابتون في موقفهم ، يمتنون النفس بوصول نجدة صليبية . ولكن
طول الانتظار قضى على امنيتهم البراقة هذه ، فتركوا مركزهم ،
وراحوا يتنقلون من تلة الى تلة حتى وصلوا الى جبل لبنان .
وعندما رأوا انفسهم جيرانا للدروز فكروا في السعي لمخالفتهم ،
وقد نجحوا في ذلك دون عناء لان شهرتهم كانت قد سبقتهم مما
جعلهم يتوقعون قيام احترام متبادل بينهم وبين الشعب الدرزي

١ - الكونت « ده درو » هو قائد الفرقة الصليبية التي لجأت الى جبال لبنان ،
نازلة في حصى الدروز ، مما حمل بعض المفلسين ... على نسبة الدروز اليه . .
٢ - هذه المنطقة كانت مشهورة في ايام سليمان الحكيم بالكروم ، وقد ورد
ذكرها في التوراة « نشيد الانشاد »

المشهور (١) •

وسرعان ما أصبح الشعبان وكأنهما شعب واحد ، يعزز
تآلفه ، الحقد الشديد على العدو المشترك الذي تعاون الدروز
والفرنسيون الطارئون على محاربته •

وقد مكن اواصر هذا التآلف ، الود الصادق المتين والوحدة
المتماسكة التي نشأ عليها الدروز وتأصلت في جميع القلوب •

والصداقة الصافية التي ربطت بين الدروز والفرنسيين
الذين نزلوا في جوارهم ، هي التي حملت ، دون شك ، بعض
المؤرخين على الانخداع باصل الدروز الحقيقي فراحوا يصورونه
كما تملي عليهم اوهامهم دون ان يكلفوا انفسهم عناء البحث
والتدقيق (٢) •

ويكفي ما نتج عن هذا التحالف من النفع انه اوقع الرعب
في قلوب الأعراب فكفوا عن الغزوات وشن الغارات التي تسبب
المناوشات الدامية ، وذلك بعد ان لقنهم جنود لبنان درسا قاسيا
في معارك عنيفة برهن فيها الدروز عن شجاعة وحكمة •

١ - ان الشعب الدرزي يقدس حرمة الجوار ويبلل الانفس في المحافظة على
جاره ايا كان ، وهناك ادلة كثيرة على ذلك

٢ - الدروز اتقى العرب دما . وقد حافظوا على نقاوة العرق بعدم اختلاطهم
بالشعوب الاخرى من طريق التزاوج ، وهم العرب الاقحاح الذين يرجع نسبهم الى
القبائل اليمنية « طي ولخم وجدام » ومعظم الاسر الدرزية في لبنان ما تزال تعرف
انسابها وتسلسل تحدرها . فاسرة ابي مصلح مثلا ، تنتمي الى طي ، وقد ورد بين
اسماء افرادها اسم « الشيخ دغلل ابي مصلح » ، و اسم « دغلل » كان محصورا
بقبيلة طي ، ومن المعروف ان هناك اسما يقتصر استعمالها على قبيلة مخصوصة
ولا تستعملها قبيلة اخرى •

وبعد ان امست مساحات المغاور (١) لا تتسع لايواء شعب
يزداد عدده مع كر الايام ، اقر هذا الشعب ان يتخذ مراكز
جديدة في السهول ، ولا سيما بعد ان شجعت انتصاراته المتتالية
على ذلك . وكانت منطقة « درو » الواقعة على مقربة من نبع
الاردن قرب جبل لبنان ، اول بقعة سيطر عليها الدروز وثبتوا
اقدامهم فيها .

واعتمادا على الحقوق التي حصل عليها حلفاؤهم في الارض
المقدسة ، فكر الدروز في التوسع بالنسبة الى عددهم الذي
يتكاثر وقوتهم التي تزداد .

وعلى اساس هذه الحقوق ذاتها ، توصل الصليبيون الى
تغيير نظام الحكومة الدرزية ، فاقنعوا الدروز بان النظام الفردي
هو افضل نظم الحكم ، لانهم - أي الصليبيين - ألفوه ، فكان الاتفاق
عاما وعهد في الصولجان الى نبيل فرنسي متحدر من اسيرة
« بويون » (٢) .

وقد جعل الحكم وراثيا ، منذ ذلك الحين ، بحيث لا يخرج

١ - ربما كان المؤلف يعني « بالمغاور » الارض الجردية المنيعة التي كان
الدروز يتخذونها منازل لهم ، لكثرة الحروب في تلك الايام ، ولا سيما ان سكان
لبنان لم يكونوا يسكنون المغاور في العهد الاخير .

٢ - يحاول المؤلف هنا ان يوهم القراء ان الدروز اسسوا مع الفرنسيين دولة
واحدة ، خضعت لقانون واحد ، واتبعت نظاما واحدا . وهذا محض اختلاق يراد به
التفريق بين الدروز واخوانهم الوطنيين . فالمعتقد الدرزي يحول دون هذا الائتلاف
الذي تخيله الكاتب . ثم ان الابداء الذي اشتهروا به يجعلهم يرفضون ان يتولى امر
الحكم عليهم رجل غريب . ولا سيما انه من المعروف تاريخيا ان الدروز اختيروا
من قبل الخليفة العربي لصد هجمات الاجانب المتتابة على لبنان ، بقيادة اميرهم
التوحي . ومنذ ذلك الوقت رسخت اقدامهم في هذا البلد واسسوا دولتهم التي
بلفت في عهد فخر الدين اوج مجدها .

من اسرة الملك الاول *

العلاقات بين سلطان مصر والدروز

اما سلطان مصر الذي ثقل عليه ان يرى في قلب امبراطوريته عدوا شديدا المراس ، يتغلب ابدا على مجهوده ، فقد عزم على تقديم مقترحات الى الدروز لاقامة سيلم بينه وبينهم على اساسها * وارسل اليهم الرسل طالبا منهم قبول صداقته وحمايته ، على شرط ان يعترفوا بحكمه من جديد ، ويدفعوا جزية كالجزية المفروضة على الاعراب *

وقبل الدروز مقترحات السلطان ، غير انهم اشترطوا ان تترك لهم ملكية الارض التي استولوا عليها ، ويعترف لهم رسميا بذلك * وبدا للدروز ان حماية سلطان قدير ، تفسح لهم مجال التنعم بايام سيلم وهناء ، ولكن الواقع كان غير ذلك ، اذ سرعان ما فقدت ممتلكاتهم من جديد الامن والهناء * وكان الدروز قد بدأوا يتنكرون (كذا) للشريعة المحمدية اشد التنكر ، وذلك عندما اخذت قوة الفرنسيين تشتد وتتعاظم * وكان من « الفخر عندهم ان يدعوا المسيحية » (كذا) (١) وهذا يكفي لحمل

١ - هراء يدرك مفزاه كل ذي بصيرة ، فالدروز ما كانوا يوما يتمذهبون بغير مذهبهم مهما اشتد الضغط ، وسنرى في ما بعد كيف يناقض المؤلف نفسه بنفسه وهو يثبت ان الوطن الدرزي كان يتسع لجميع الديانات ، وكانت الوحدة قائمة بين السكان على امتن ما يكون من الاسس ، ثم كيف يتظاهر الدروز بالمسيحية وهم اصحاب البلاد واصحاب السلطة فيها والصليبيون طارئون ونزلاء الى وقت ، وهل يمثل ان يستجير المجير بالمستجير ؟ . لقد كان عليه ان يقول يتعاونون والمسيحية لا يدعوونها *

المسلمين على الجور عليهم •

والدروز اعداء حقودون ، وكانوا لا يذكرون العرب المسلمين الا تعريضهم الرجفة ويشعرون بالهول ... وقد اشتدت العداوة ، بعد ان رفع المسلمون (كذا) ، قيمة الجزية ، فجهز الدروز جيشا لمحاربتهم دون ان يعرضوا الامر على البلاط المصري ناسين انهم تحت سيطرته •

وكعادتهم جعلوا من المعركة مجزرة رهيبة ، حيث احرزوا انتصارا عظيما وغنموا غنائم كثيرة • وبعثا حاول سلطان مصر ان يرض عليهم سلطته ، وهم المنتشون بخمرة انتصاراتهم الجديدة ، الوائقون من كفاية قواتهم وقدرتها على الثبات في وجهه ، فرفعوا علم الثورة عاليا ، لايهابون حتى هذا السلطان الذي كانوا خاضعين له •

لم تكن القوة الحربية متساوية ، فجحافل السلطان الجرارة التي تمكن من ارسالها الى المعركة كانت كافية لاختضاع الدروز دون عناء •

ولما كان من الواجب ان تتعادل القوى في مثل هذه الاحوال عاد الدروز الى اماكنهم الحصينة واتخذوا منها مراكز للدفاع ، وراحوا يمزقون جيش السلطان فرقة بعد فرقة •

وفي تلك المناطق الوعرة رأينا الدروز من جديد يحافظون على قوتهم وشجاعتهم معتمدين على الحيل الحربية لدى كل حملة ، وهكذا كانوا يخرجون ابدا بالاتصالات الباهرة •

وكان من المخزي لحاكم كبير ، ان يعجز عن اخضاع شعب ،

ليس سوى حفنة من الرجال اذا قيس بجيشه ، ولكن روح الاستقلال التي تأصلت في نفوس هذا الشعب ، كانت عاملا جديدا للاضطراب والقلق مما افقد السلطان امله في اخضاع الشعب الدرزي والسيطرة عليه .

والحملة التي ارسلها السلطان العثماني الى مقاطعات سلطان (١) مصر ، وقفت مشاريع الاخير المعدة لمقاومة العصاة ، لانه كان في حاجة الى جمع قواته لصد هجمات الاتراك ، ولذلك امر القوات التي جاءت تغزو جبل لبنان بالعود الى مراكزها .

وسرعان ما عاد الدروز ، بعدئذ ، ينتشرون في السهل الخصيب الغني الذي يحمل اسمهم .

وهذا البلد الذي يسكنه شعب محارب شديد المراس ، يزداد عدده باطراد ويساعده موقعه على توفير الهدوء والسلام لاهله ، قد سادته السلام فعلا بعض الوقت ، على الرغم من ان الدروز استمروا ، كعادتهم ، يعمدون الى الانتقام السريع اذا ما وقع عليهم اي اعتداء .

وخطة الانتقام هي افضل ما يعتمد عليه شعب ناشيء لا يمكنه ان يوفر لنفسه من الاحترام الا بقدر ما يزرع من الرعب في قلوب الطامعين .

١ - هو السلطان قانصو الغوري الملقب بالملك الاشرف . انكسر الغوري في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ بعد ان تراس جيشا قادما من مصر ، وقد سقط عن فرسه ثم قطع راسه واختفت جثته بين القتلى ، بعد ان انقلب عليه اعدائه انفسهم وامراء ولاياته منضمين الى السلطان سليم العثماني مع الامير فخر الدين المعني الاول ، والامير جمال الدين التنوخي وعساف التركماني ومنصور الشهابي .

اول اصطدام بين الدروز والأتراك

في تلك الاثناء كانت فلسطين قد سقطت تحت الحكم العثماني . ورأى الاتراك ان يختبروا قوتهم في محاربة الدروز ، غير ان هؤلاء لم يفقدوا شيئا من بأسهم ، ولا من قدرتهم على مقارعة العدو الجديد ، مستغلين طبيعة ارضهم ابرع استغلال ، مدافعين بكل قسوة ونشاط وثبات ، حتى ارغموا اعداءهم على الانسحاب بعد ان اصابوا بخسائر كبيرة .

وعندئذ فكروا في تحصين مداخل حدودهم ، وجعلوا قصارى جهدهم ان يحققوا هذه الغاية ، وقد كان ذلك مشروعا جريئا اثار حفيظة البلاط العثماني . وما كاد الخبر يتصل بالسلطان سليم الثاني حتى عقد النية على اخضاعهم ، فسير اليهم سنة ١٥٧٤ جيشا عرمرما اشتبك معهم في معركة عنيفة لم تكن لتبيحها باحسن من نتيجة المعركة السابقة .

وذهب مجهود الامبراطورية سدى ، وخرج الدروز في النهاية منتصرين بعد ان خسر الاتراك عددا ضخما من جنودهم الذين فروا امام جنود لبنان ، مما حمل الامبراطورية على صرف النظر عن مواصلة هذه الحرب .

ولكن المهادنة لم تكن طويلة الاجل ، لان منتجات مقاطعة الدروز الذين تزايد عددهم باتت لا تكفيهم لتوفير اسباب المعيشة ، فعادوا الى شن الغارات على البلدان المعادية ، ناصرين الرعب ، ظافرين بالغنائم مسببين الاضرار . فثار الباب العالي من جديد ،

وعزم على اخضاع الدروز او ابادتهم مهما كلف الامر .
ولهذه الغاية ، رأينا ابراهيم باشا (١) يتقدم سنة ١٥٨٨ ، من
القاهرة الى فلسطين على رأس جيش ضخم كامل العتاد . فلم
يبق عندئذ سبيل لمقاومة تلك القوى المتحدة . فخضع الدروز
لحكم الامبراطورية العثمانية ، وابدوا فروض الطاعة . ولكن
الغرامة التي فرضت عليهم كانت باهظة وفاقت ما كانوا يترقبون .
فلقد كان عليهم ان يقدموا عرشا من الذهب الخالص يقدر
بستمئة الف دينار ذهبيا ، بعث به ابراهيم باشا الى السلطان
مراد (٢) في قسطنطينية .

وتذكر الرواية ايضا ، ان هناك هدايا ثمينة ساقها هذا
القائد الى السلطان ، علاوة على العرش .

١ - ابراهيم باشا ، هو اول وال من قبل السلطان العثماني ، على مصر .
جاء ابراهيم باشا من مصر الى لبنان ، على رأس جيش قوي ليبرغم الدروز
على دفع الاموال التي نهبها بعض اللصوص في جون مكار ، من قافلة كانت تحمل مال
الدولة السلطانية الى استانة . وكان هؤلاء اللصوص قد دخلوا الشوف الذي يحكمه
الامير قرقماز ، ونجوا دون ان يلقي القبض عليهم .
استسلم لابراهيم باشا جميع الامراء ، ما عدا الامير قرقماز ، فقد قاومه
مقاومة باسلة ، دفاعا عن الكرامة ، لكنه قلب على امره اخيرا فالتجأ الى مفارة شقيف
تيرون قرب نيجا .
وتوفي سنة ١٥٨٤ تاركا لامراته الاميرة نسب التنوخية ولدين هما يونس
وفخر الدين .
دعا ابراهيم باشا اليه عقاب الدروز ، فتوجهوا الى عين صوفر لمقابلته ، فقتل
بهم وقتل منهم ما يزيد على خمسمائة رجل ، ثم تابع طريقه الى استانة مع الامراء
الذين استسلموا اليه غير ان السلطان عفا عنهم جميعا .
٢ - مراد الرابع : سنة ١٦٢٢ - ١٦٣٩ . لم ينجح في محاربة الفرس الا حين
قاد الجيوش بنفسه . وقد استرجع بغداد سنة ١٦٣١ قدخلها كما دخل الاسكندر
بابل لابسا فروة نمر .

من هنا ، يمكننا ان ندرك الغنى الذي احرزه هذا الشعب المنعزل ، الذي اثرى دون ان يتعاطى اية تجارة ، وذلك يدل على المدى الذي وصلت اليه الدولة في حسن ادارتها والازدهار الشديد الذي حققه المواطنون في صناعاتهم •

ونعم الدروز من جديد بسلم وطيد ، بعد ان صاروا من دافعي الجزية ، ولكن هذا السلم لم يصرفهم عن مشروعاتهم التوسعية بل على العكس من ذلك ، فقد شجعها وغذاها • وجاءت السياسة تعزز فكرتهم ، فقد عرضوا على السلطان ان ينظفوا المقاطعات من الاعراب الذين يقلقونه •

وكانت تلك الحجة المموهة ، السبيل الذي توسعوا عن طريقه نحو البحر وكان امتلاك الشواطئ في الحقيقة غاية ما يرمون اليه من توسعهم لانه الوسيلة الوحيدة التي تؤمن لهم المنفذ الخارجي والتجارة •

وقد تحققت امانيهم بعد انتصارهم على الاعراب ، وتمكنوا من ان يستولوا على المقاطعات التي كانت تتقاسمها اسباط عازر وزبولون (١) ونفتالي (٢) في اعالي الجليل واسفله ، وما وراء الاردن المأهول •

بداية عهد فخر الدين

كان الدروز قد بلغوا حدا قصيا من القوة ، عندما ورث

١ - زبولون ، هو سادس أبناء يعقوب من لينا . واليه يرجع نسب احد اسباط اسرائيل . وبلاد زبولون هي منطقة في شمال فلسطين .

٢ - نفتالي : ابن يعقوب ، اسس سبطا من اسباط بني اسرائيل ايضا

فخر الدين منصب الامارة بعد موت الامير معن (١) الذي تسلم الحكم قبل سنة ١٦٠٠ بسنوات قليلة .

اعجبت كل الاقطار في آسية واوروبية بهذا الامير الذي لقب « بالكبير » وكان اسمه يقتزن بالنصر والعظمة .

ولم يكن فخر الدين قد بلغ السابعة (٢) عندما نصب اميرا ، ولكنه كان ذكيا ، فطنا متمتعا بالحكمة والمقدرة الفائقة ، فعكف على العلوم الادارية ينهل من معينها ، ويتثقف بسياسة الحكم ، حتى تمكن في سنوات قليلة من القيام بالاعمال المنوطة به .

وكانت المواهب التي منحت اياها الطبيعة ، تدفعه بخطى سريعة نحو الميدان السياسي الذي شغف به ، وسرعان ما استطاع ان يحكم بنفسه ، فأبدى مقدرة فائقة في تسيير دفة الحكم في وسط هالة من العظمة والقوة .

وكانت السياسة التي اتبعها اسلافه الامراء ، والمخططات الحكيمة التي ساروا عليها ، ترضي طموحه البعيد المدى ، فاستلهمها واتبع منهجها .

وكانت القدس الغاية التي اتجهت نحوها آماله ، فاسترجاع سولجان هذه المملكة المنتزع من اجذاده ، كان هدفه الاساسي ،

(١) الحميفة أن فخر الدين ورث الامارة بعد موت ابيه قرقماز ، لا بعد موت الامر معن كما بروي الكاتب .

(٢) جاء في تاريخ بليبل ، و الشيخ شيبان الخازن انه بعد وفاة الامير قرقماز ، كان الامير فخر الدين طفلا ، فحمله احد مشايخ آل ابي مصلح من عين كسور الى احد اصدقائه مشايخ آل الخازن في قرية الباونلة ، حيث تعهده بالتربية حتى شب ، وصار قادرا على ادارة شؤون الامارة ، فنصب اميرا . - اختلفت الروايات في سن الامير فخر الدين وقت تسلم الحكم ، ولكن اصح ما قيل ، انه كان يبلغ الثامنة عشرة .

وشغله الشاغل .

وكانت رغبته فى استعادة هذه المملكة سبب الحروب التي خاض غمارها ، محرزا الانتصارات ببسالته التي استرعت الانتباه .

كان فخر الدين يخفي مشاريعه التوسعية بالحجة ذاتها التي تذرغ بها أسلافه ، فقد جهز جيشا لمقاومة الاغراب يقوده بنفسه ، غير متوان عن محاربة رجال العصابات الذين كانوا ينهزمون امامه فى كل غارة ، متراجعين الى حدود ارضهم بخسائر فادحة .

لم يكن هناك من يجرؤ ان يشكوه الى البلاط العثماني ، بعد ان عرف ان الاتراك فى حاجة اليه ليقبهم شر عصابات الاغراب ، ويخلصهم من الغرامات التي كانوا يفرضونها عليهم ، فقد كان فخر الدين بالنسبة الى البلاط العثماني ، المنقذ الكبير .

لهذه الاسباب اصبح فخر الدين حديث رجال الديوان السلطاني ، يمتدحونه ويبدون اعجابهم بمزاياه الفريدة .

وكان هذا كافيا ليؤلب حوله الاعداء الاقوياء الثابتين . فى كل العصور وكل المناسبات ، والحسد يقود عادة الى الظلم الوحشي . والعظماء انفسهم يفسدهم فى بعض الاحايين هذا المرض القتال اذا تمكن من نفوسهم . فقد كان يؤلم الخصوم جدا ان يقوم شخص كبير ينافسهم ، طامسا أسماءهم ، فتألب عليه الباشوات بدافع الحسد وراحوا يدبرون له المؤامرات بعامل من حقد لا يعرف اللين ، وقد بدأت دسائسهم تمثل دورها الكبير ، حين وجدوا السلطان يحترمه ، قادرا انتصاراته ، معترفا له بالجميل .

وسرعان ما سار قاهر الاغراب المشهور بجيشه الى بيروت . فموقع هذه المدينة ، واهمية مرفأها ، جعلاه يدرك ضرورة الاستيلاء

عليها ، والافادة التي يحصل عليها بافتتاحها ، فضعها اليه متخذاً منها مكاناً لاقامته ، ومركزاً « لامبراطوريته » .

وفي وقت قصير اعيد بناء بيروت في شكل جميل ، وأهلت بالسكان ، واتسعت شهرتها . وبيروت هذه ، وان لم تكن دوماً مركز حكومات فخر الدين ، فقد كانت على الاقل « مخزن » ثروته وهيكل نعماءه .

ان القصور الرائعة التي شيدها الامير في بيروت ، والحدائق الغناء التي انشأها بذوقه ورعايته وعنايته ، كانت تعلن عن عظمتها وجلاله وبعد نظره .

التوسع في التجارة الخارجية

اما « صيدون » القديمة ، الملقبة اليوم بصيداء ، فقد برزت لفخر الدين موضوعاً آخر أهلاً للبحث والنظر ، فاستولى عليها وراح يرفع اسوارها ، ويبني قصورها ، ويتعهد بها بالتجميل البديع ، ويعيد انشاءها على شكل اخاذ .

ثم انه شيد فيها مبنى مرتباً ، مؤلفاً من مئتي غرفة للتجار المسيحيين ، وبني مخازن من جميع الانواع لبضائعهم ، لكي يستجلب اليه تجارة اوروبة ، ويستهووي تجارها . وقد نجحت مساعيه في ذلك كل النجح اذ سرعان ما هرع المغاربة واليونانيون واليهود ، زرافات ووحداً ، وهم العالمون بجودة منطقة صيداء . ولكن الذي ساعد كثيراً على تسابق الاجانب للتجارة مع الدروز ، هي حكمة فخر الدين السياسية التي سمحت بحرية

المعتقد في جميع انحاء دولته * (١)
جرت هذه الاعمال جميعها دون ان تمر في ذهن السلطان اية
شبهة ، لان فخر الدين عرف بذكائه ويقظته كيف يتجاوب مع
الديوان في الباب العالي ، محطما بذلك كل الدسائس والمؤامرات
التي كان يدبرها اعداؤه *
ان وشايات الباشوات الدنيئة ، كانت لا تصل الى العرش ،
بعد ان اخذ الامير يزيد قيمة الجزية ، كلما ازداد توسعه *
كانت تلك السياسة ذات وجهين ، كلاهما رائع * الاول هو
اعطاء السلطان العثماني الدليل الواضح على الامانة الظاهرة ،
والثاني جعل الامبراطورية العثمانية تقف مطمئنة لامتلاك الولايات
التي يستولي عليها فخر الدين ، والحوول دون مقاومة البلاط له ،
ما دام هذا التوسع الذي يحرزه الامير يؤمن للبلاط العثماني
ضريبة تفوق اية ضريبة يقدمها اشد ولاه السلطان المقربين
وبعد هذه الاعمال الناجحة ، اذاق الامير فخر الدين شعبه
حلاوة السام لسنوات طويلة متتالية *
كان هذا الامير ، المهتم اهتماما شديدا ، بالامور الداخلية ،
والمنصرف الى تحسين احوال حكومته ، يدرك ان الدول تأخذ من
التجارة اقصى قوتها ، ومن الفن كل روثقه وجلاله *
ولاقتناعه بهذه الحقيقة ، منح التجارة حماية فائقة ، وقام
بكل الخدمات التي تجذب الاجانب الى مرافئه *
وكانت الحماية ذاتها ممنوحة للفنون * فالثقة بالمكافأة الاكيدة

(١) هنا يكذب الكاتب نفسه ، فيعترف بان الدروز ... على عكس ما قاله سابقا -
سمحوا بحرية المعتقد ، فلم يفرقوا بين الاديان ، ولا مالوا الى فئة دون اخرى ،
بل حققوا الوحدة الوطنية التي تعتبر اساس كل دولة تسعى الى توطيد استقلالها .

على التطور ، لم تشجع فقط الصناعة في حضن دولته ، ولكننا رأينا ارباب الفن المهرة من البلاد الاجنبية، يهرعون اليه ويتسابقون الى العيش في كنف رعايته وحرصه على تقدم الفن .

والفرنسيون كانوا اول من ملأت اشراعتهم مرافئ فخر الدين، وكانوا أحب الاجانب اليه والى شعبه ، والارباح الفاحشة التي جنوها من تجارتهم كانت الدافع الذي جعل غيرهم من الشعوب يتسابقون الى دخول المرافئ اللبنانية .

وفي وقت قصير ، وجد الدروز انفسهم يتعاملون بالتجارة مع كل الاوطان الاوروبية وقد قام فخر الدين بزيارات عدة الى ايطالية لكي يختار اشخاصا متخصصين بميادين شتى .

وكان في كل مرة يعود من سفره يأتي بالمهرة من ارباب الفن زيادة في عناية الدولة ، ورغبة في نشر الرخاء في ارضه والالفه بين مختلف افراد شعبه .

والضرائب التي يجيها كانت باهظة ، ولكنها تختلف حسب اهمية الانتاج ، فقد جعلها نسبية ، تخضع لدراسة كاملة ، بحيث لم يكن هناك شخص يتذمر من غبن لحق به . اذ لم تكن تلك الضرائب من النوع الذي يضنك الشعب ، ويبعث على التذمر من طريقة توزيع الضرائب ، وعدم عدالتها . وغش الجباية وقساوتها ، يولدان كره للعمل والكسل ، وامانة الاعمال المثمرة .

كان فخر الدين يجبي من الضرائب نحو مليونين ، ولا يدفع للسلطان منها سوى ٦٠٠٠٠٠ درهم . والعجيب انه كان يعيل ، من هذا الدخل باستمرار ، خمسة وعشرين الفا من جيشه .

ادارة فخر الدين الحكيمة

كان لفخر الدين سجل خاص بجميع رجاله ، يسجل فيه اسماءهم واعمارهم ، وجداراتهم ومواهبهم البارزة ، وذلك كي يتسنى له ان يعطي كلا ما يستحق ، دون ان يكون نصيب الواحد اكثر من نصيب الآخر ، بالنسبة لمقدرته وكفايته .

وكان لديه سجل آخر احصيت فيه مختلف الاشجار المثمرة في مملكته ، فكان يعرف عدد الدوالي ، واشجار التوت ، حيث كانت تقدر غلة كل منها بـ ١٠٠٠ وحدة .

وكان يعرف ايضا عدد الثيران ، والابقار ، والمعزى ، والغنم التي كانت تعطي نتاجا ضخما .

وقد وضع لنفسه قانونا يسير عليه وكان ينفذه بدقة ، فقد عين في كل يوم ساعة خاصة يعتمد فيها الى تدقيق الحسابات ومراجعة الاعمال المختلفة . وكانت هذه الاعمال تسجل خطيا وتحفظ للرجوع اليها عندما تدعو الحاجة .

كان فخر الدين نير الفكر ، مشغوقا بالعلوم . فقد عكف على دراسة اللاهوت . وشغلته الكيمياء ، كما اهتم بمعرفة العقاقير . ولم ينس ايضا الفن فقد دعا اليه رساما فرنسيا ، وضع له ما يزيد على ١٥٠٠ صورة مختلفة للطبيعة .

وهذه الرغبات المختلفة التي شغف بها ، لم تصرفه عن المهام الاساسية للحكم ، فقد كان يطلع على كل الامور التي تحدث في أرضه . وتنتهي اليه احكام الجيش ، والشرطة وصيانة القانون ،

لكنه لم يكن يتدخل في القضايا التي تتعلق بالديانة المسيحية ،
احتراما للكنيسة الرومانية مفوضا امر تلك القضايا باكملها الى
البطريك الماروني .

كانت لوحة قلبه صافية ، باهرة الوصف ، اذا نظرنا الى
امائه لاصدقائه ، ومعاملته الحسنة لهم لكنه ، كذلك ، كان من السهل
عليه جدا ، ان يلجأ الى مختلف الاساليب ساعة ينبغي التخلص
من اعدائه .

ونحن لا ندعي ان هذه الصفة ، أي صفة الانتقام السريع ،
هي التي ثبتت لقب « الكبير » لفخر الدين ، ولكن هناك امورا
سياسية استطاع ان يتحكم بها ، ويسيرها حسب مشيئته ، اكسبته
في الحقيقة هذا اللقب .

وكان الامير الكبير ، لا يتورع عن التظاهر علنا بالصدقة
لاعدائه الذين يكتمون في نفوسهم عداوتهم له ، ويستدرجهم بحجة
الصدقة ، لينفذ في صدورهم الخنجر اذا رأى انهم يستحقون
ذلك .

لقد كان يلجأ الى هذه الطريقة للانتقام من خصومه ، الكاتمين
عداءهم ، الذين يخاف ان ينقلبوا عليه ويعملوا للاطاحة به .
ومقتل امير بعلبك على يده يكفي للدلالة على وصف انتقامه ،
اذا دخل قلبه الحق على احد .

كان امير بعلبك تركيا ، عزيزا على شعبه ، محبوبا من الامراء
والباشوات المجاورين ، جديرا بمودتهم لما يتمتع به من نفس كبيرة ،
ولكنه كان العدو السري لفخر الدين ، فكتم هذا حقه وعداءه ،
واظهر له الصداقة ، معلنا له ذات مرة ، انه عزم على ان يطلب من
السلطان قلعة الفرنجة ، وهي اكبر قلعة شيدها « كودفروا دو

بويون « في سورية • فراهن امير بعلبك في حفل من الناس ، بقطع رأسه اذا استطاع الامير فخر الدين ان يحقق هذا الامل •
رسخ هذا الجواب في مخيلة امير الدروز ، فرشا احد اعضاء مجلس السلطان بثمانين الف قرش وتمكن عن هذه الطريق ،
بالاضافة الى دفع بعض الضرائب ، ان يحصل على القلعة المذكورة •
وجاء صوباشي (١) مسرعا من القسطنطينية ، يبلغ فخر الدين ملكيته للقلعة ، فحصلت له فرحة عظيمة ، وبهجة لا توصف ودعا الامير فخر الدين على الاثر ، امير بعلبك ، الى وليمة فخمة جمع فيها كثيرا من الامراء والاعيان ، وقبل ان ترفع المائدة ، وبينما كان المدعوون ما يزالون جالسين على السجاد ، وجه فخر الدين كلامه الى امير بعلبك قائلا : « لقد اخبرتك ، من قبل ، انني ساملك قلعة الفرنجة » فكان جواب امير بعلبك ، انه لم يكن يتوقع هذا التوفيق العظيم ، فائقض عليه امير الدروز ممسكا بلحيته ، وقطع رأسه • قائلا له :

« تذكر قولك ! ... ألم تعد بتسليمي رأسك اذا ملكت القلعة ؟ • ها انذا اليوم أملكها » •

واشباعا لانتقامه ، حاصر في اليوم التالي قلعة بعلبك التي تعد احدى عجائب آسية ، واخضعها لحكمه ، كما أخضع جميع المناطق التي كانت تحت سيطرة الامير المقتول •

تلك حادثة مؤسفة بلا شك ، وربما كان لها اثر ازرى بمزايا كثيرة ، مما كان يتميز به فخر الدين ، غير انها حادثة تستحق التسجيل ، اذا اراد المؤرخ ان يعطي القارىء لوحات صادقة ، ويكون امينا في السرد •

١ - اي احد رجال البلاط العثماني •

قوة فخر الدين تزداد سياسيا وماديا

واخذت قوة فخر الدين تزداد يوما بعد يوم ، وعم الرخاء بين الشعب تحت ظل الطمأنينة ، دون ان تخلق بطالة او كسلا ، لان الحكومة تفادت ذلك بعدلها وحسن تدبيرها . ولقد حدث العكس تماما فاثارت السعة الهمة ، ودعت الى العمل والاهتمام بالصناعة ، وزراعة الكرمة والاشجار المثمرة ، والقطن ، واعطت كلها نتائج باهرة حتى ان الجبال الجرداء والارض البور جهدت في شقها السكة وعمل فيها المحراث .

كثر الزرع في كل مكان ، واعطى من النتائج ما كان فوق المؤمل . مما اسعد السكان ودفعهم الى العمل المنتج بجهد ونشاط ، وكانت المراعي الخصبة تزيد في تكاثر المواشي ، فعم الرخاء ، وانتشرت النعمة وسعة اليد في كل ميدان ، وانتعشت التجارة وراجت رواجاً شديداً ، فأمنت للبلد كل ما كان ينقصه من حاجات .

وهذا الرخاء المنتشر بسرعة ، لم يثقل كاهل الشعب ، بل اصبح للناس اكبر عامل للتشجيع على الاقتاج . وفي ظل هذا الحكم السعيد ، تطور المجتمع ، وازداد عدد افراده بسرعة ، وتعددت بواعث النشاط واسبابه ، بعد ان زالت من نفوس السكان مخاوف الفاقة والحرمان .

لهذه الاسباب ، كثرت موجات الوافدين الى البلاد من الاجانب ، مما وفر مزيدا من النفع . وهرع عدد كبير جدا من الاسر المسيحية ، لاجئة الى « امبرطورية » امير الدروز ، هاربة

من اضطهاد الاتراك وتعسفهم •
وبعد سنوات قليلة ، بلغت « الدولة الدرزية » درجة من
القوة رفيعة جدا •

هكذا كانت حال الشعب سنة ١٦١٣ • غير ان الاعراب اخذوا
يفسدون في تلك الايام الحلوة بسلمها وأمانها ، بعد ان اغرتهم
ثروات الدروز ، وادخلت في نفوسهم الحسد ، فلجأوا الى
الصوصية ، وقطع الطرق ، لكن هذه التعديات زادت في تمجيد
فخر الدين وتعظيمه ، بعد ان قضى على اولئك الاعراب في قتال
عنيف ، مزق صفوفهم وشتت شملهم ، فجأؤوه اخيرا يتوسلون
اليه ، في ذل وانكسار ، ان يعفو عنهم ويقبل صداقتهم ومحالقتهم •

بدت الفرصة لفخر الدين مؤاتية كي يحقق اماله وينجز
مشروعاته بعد الانتصارات الجديدة التي جعلت اسمه يبعث
الرعب كما يحمل على الاحترام • وكان الامير محبوبا من شعبه
الذي اصبح في مأمن من هجمات الاعراب بفضل تدابير فخر الدين •

وقد استولى على جميع القلاع التي رأى في الاستيلاء عليها
ضرورة ، فافتتح خمس عشرة قلعة ، منها قلعة عجلون ، وقلعة
نيحا ، وقلعة الشقيف • وكانت هذه القلاع تعتبر من اقوى الاماكن
المحصنة في الشرق الاوسط ، وزاد هو في تحصينها ، واختزن
فيها المؤن كما عززها بالحرس ، لانه كان ينوي ان يؤلف من
البلدان التي اخضعها جمهورية القصد منها في الحقيقة تهديم
الامبراطورية العثمانية •

ولكي يتم له كل ما يصبو اليه دون عرقلة ولا عقبات ،
اوهم الباب العالي بلباقة الذكي وبهاة الحريص ، انه لا ينوي من

وراء توسعه وتقوية بلده الا المحافظة على الامبراطورية وحمايتها
من هجمات العصابات المتكررة •

توسع فخر الدين يثير مخاوف الباشاوات

وضج الباشاوات والامراء المجاورون من توسع فخر الدين ،
وسيطرته على مناطقهم ، وتوالت على الباب العالي شكاياتهم ،
بعد ان ادركوا ان فخر الدين يرمي ، بفتوحاته ، الى الاستئثار
باماراتهم والامعان في تمزيق قواهم •

ولكن امير الدروز استطاع ان يتلافى نتائج سعاياتهم عن
طريق اصدقائه المقربين الى السلطان العثماني الذين عرفوا كيف
يقنعون السلطان بحجة فخر الدين ، ويؤمن بالاسباب التي يتذرع
الامير اللبناني بها ، وهكذا اخفق اعداء امير لبنان في جلب الضرر
له ، فنقموا عليه بسبب اتساع نفوذه وكثرة فتوحاته •

وبسبب ذلك قام الحلف المشهور بين الامراء التابعين
لالامبراطورية العثمانية ، الذين كان يؤيدهم ويساعدهم باشا دمشق
وباشا طرابلس • وسرعان ما اجتمعت جيوش هؤلاء الامراء
جميعا للعمل ، بعزيمة ماضية ، على استعادة البلدان التي اغتصبها
فخر الدين •

وادرك فخر الدين نياتهم ، وعلم باستعداداتهم وخططهم ،
ولكنه لم يقلق بل بقي ثابت الاعصاب ، وفيما كان خصومه
يستعدون لمفاجأته في قلاعه ، اذا به يباغتهم بغزوات وهجمات
ليس القصد منها اثاره حرب منظمة معهم ، بل تمزيق صفوفهم
وهم كأنهم في حفلة عرض •

وكان القواد المتحالفون يتلون بالهزيمة في كل لقاء مع قوات الامير الدرزي الذي كان يطاردهم ويشنت جحافلهم وهم ممعنون في الفرار .

والذي اسعفه على قهر خصومه الثروة التي ينعم بها والعبقريّة الحرّية المتجلية فيه .

وازداد اعداؤه المغلوبون على امرهم حقدا عليه وضعينة . على الرغم من انكسارهم ومن الالهانة اللاحقة بهم .

وقد جمعت المصيبة بين هؤلاء وألفت بين نفوسهم المبتلاة بالمهانة ، ولذلك ترى اصحابها يستسيغون جميع السبل ، على حقاراتها اذا كانت تحمل اليهم الامل في ارواء الحقد .

حاول الامراء والباشوات الفوز عن طريق التخدير والارهاب ، فلم يفلحوا ، فلجأوا الى النسيمة التي خيل اليهم انها تساعد على هدم عدوهم المشترك .

وسرعان ما اثارت هذه الخطة في البلاط موجة من الذعر ، هائلة ، لما لفقته عن سيرة فخر الدين الذي جعلته الدعوة الكاذبة بعين الاتراك مخزيا ، ممقوتا ، واشاع بعضهم في كل مكان ان امير الدروز يدعو الى الثورة لحماية المسيحيين بشكل علني ، خارقا بجرأة ، معتقد النبي محمد .

ووصلت الاشاعة بسرعة الى السلطان احمد (١) ، الذي اشتدت ثورته ، وغلى الغضب في نفسه ، فاعد العدة للانتقام . ولكن اصدقاء فخر الدين استطاعوا ان يهدئوا هذه العاصفة وان يصلحوا الامر ، مكذّبين الاشاعات .

١ - هو السلطان احمد الاول ١٦٠٢ - ١٦١٧ في عهده غيرت النمسا اسم الجزية باسم هدية ، واستعاد الفرس تبريز وروان وشروان بتقدمة ٦٠٠ حمل حرير .

واقتنع السلطان ، بناء لاقوالهم ، بان هذه الدعوة كاذبة ،
ولا ترتكز على اساس ، وان الحسد وحده هو الذي اثارها ،
ونشرها ، وان قوة فخر الدين ما هي الا دعامة للامبراطورية
العثمانية ، ما دام خاضعا لها ، ويدفع الجزية باكملها دون نقصان •
واستيقن الباب العالي من ان فخر الدين ، انما هو صديق مخلص ، لا
يخون ، وانه السند الوحيد للتاج •

وبهذه الصورة ، اخفقت مساعي الشاكين ، فناموا على
جراحهم ، بعد ان ايقنوا انهم لا يتمتعون بحكمة فخر الدين ، ولا
بالشجاعة الكافية للقيام بمثل مهامه •

وهدوء العاصفة التي اثارها الاعداء ضد فخر الدين ، كانت
له نتائج طيبة ، لو اكتفى فخر الدين بملكية المقاطعات التي استولى
عليها ، واهتم بها دون الطمع في التوسع لاقامة دولة قوية •

لقد كان بإمكانه ان يكون أسعد من ملكوا وحكموا ، وهو
العزیز على شعبه ، القوي بثرواته ، البار برجاله المنيع بعدد جحافله
المدربة ، المخيف لجيرانه ، الاثير لدى السلطان • • كان بإمكانه ،
بفضل كل ذلك وباحترام اعدائه له ، ان يجعل السعادة تغمر
امارته ، وتغلف قلبه الى وقت طويل ، ولكن طموحه ابقى عليه ان
يقف عند حد وفتح امامه افاقا واسعة من الامال والاماني •

وكان للقدس بريق مفر جذبه اليه ، فلم يستطع صبرا عن
الوصول اليها وافتتاحها ليكون سيدها الاوحد ، فحالف الفرس ،
ممنيا النفس بان يصبح المسيطر على بلاد ما بين النهرين •

وبدت الفرصة حينئذ ، سانحة للاعداء وصمموا على ان لا
يدعوها ثقلت من ايديهم ، فاتفقوا جميعا ، يدفعهم الالم المقهور
الموتور ، على ان يؤلفوا وفدا من الزعماء يحمل الشكوى الى

السلطان • وتولى باشا دمشق ايصال الوفد اليه •
وهناك ، في البلاط العثماني ، ليس من شيء لا يمكن بيعه ،
فالمال هو الوسيلة الفضلى التي تجعل الانسان صديقا للسلطان
ومتمتعا بحمايته •

ان الصدر الاعظم ، الذي كان فخر الدين يعده من اصدقائه ،
ويعتمد عليه في اعماله وثروته ، لم يكن راضيا عن الهدايا والرشوات
التي كان امير لبنان يزجها اليه ، فقلب له ظهر المجن • وليس من
الغرابة في شيء ان يخون الصدر صديقا ليس راضيا عنه ، بعد
ان نكث من قبل بعهد السلطان وخانه خيانة نكراء •

وترأس الصدر الاعظم المؤامرة التي كان هدفها امير الدروز ،
وعبثا حاول اصدقاء فخر الدين المخلصون ان يبرئوه لدى
السلطان ، فمركز الصدر الاعظم ، ونفوذه في البلاط جعلوا الدفاع
باطلا ، فكان النصر حليف الحزب المعادي •

السلطان التركي ينقم على فخر الدين

وثارت في صدر السلطان غضبة لا تقل عن غضبة المتآمرين ••
تلك الغضبة التي جمعت كلمتهم ، والقت منهم حلفا حقودا
لمقاومة فخر الدين • فاضمر السلطان في نفسه نية القضاء على
امير الدروز الذي لفه الاعداء برداء الخيانة ، وجعلوا منه الخطر
الجاثم على صدر الامبراطورية •

وجاءت الاحوال تساعد على ذلك ، بعد ان مزقت الحروب
الامبراطورية ، فارتفعت اصوات التذمر من المقاطعات النائية ،

تشكو قسوة الحكومة ، مهددة بانفجار قريب •
وجد السلطان نفسه في مشكلة تتطلب عونا وسندا ، فزاد
في تيقظه وتقمته وجهاز ستين سفينة حربية ، وعددا مماثلا مسن
البواخر لمهاجمة الامير فخر الدين من البحر ، بعد ان تولى باشا
دمشق قيادة ثلاثين الف مقاتل ليهاجم امير الدروز من البر •
وتناهت الى مسمع الامير اجراءات الامبراطورية العثمانية ،
فعمل في جد وروية لاختيار مسلك حكيم يسلكه ، ودرس قدرة
قواته ومداهها ، مقارنا بينها وبين قوات الاعداء المستميتين في
الحرب ضده والذين ييغون شخصه اكثر مما يطمعون في ممتلكاته •
كان يعلم ان خسرائه معركة واحدة ، بل حتى انتصاره في
معارك عدة ، امر يحطمه ويوقف به عن اتمام مشاريعه •
وعالج الامر بحكمة ، فرأى ان ليس له حلفاء اشداء ، اقوياء ،
محصنون ، يعتمد عليهم ، وانه من المجازفة ان يقدم على الحرب ،
لان انهزامه يمكن ان يقوضه ويبيده ، اذا تصلب الاعداء في القتال ،
وركبهم العناد ، في متابعة حرب طويلة الامل •
وبعد ان درس هذه الامور مليا ، رأى ان يقابل تلك الحال ،
بالتغيب عن دولته بعد ان شعر بغضبة السلطان الثابتة التي
لا تقهر ، فتنزل عن الحكم لابنه الاكبر ، ثم جهز ثلاث سفن ركب
احداها مع اربع من نساء اسرته (١) ، وعشرة من اولاده ، وستين
خادما من خدمه ، حاملا اربعة عشر الف ليرة من الذهب •

١ - لم تبهر مع الامير فخر الدين سوى امراته خاصكية الطافري . وهذا يثبت
ان فخر الدين لم يجمع في زواج واحد اكثر من امرأة . ولو عرف حينذاك تعدد
الزوجات لكان اصطحب معه اكثر من زوج واحدة . وكان برفقته مستشاره الحاج
كيوان ، والشيخ خاطر الخازن .

اما السفينتان الاخريان فكاتتا للمرافقة .
وقد ارشد ابنه الى الطريقة التي يجب ان ينتهجها ، اذا
اشتعلت الحرب ، ونصح له بان يظهر بطولة فائقة وبسالة نادرة في
الدفاع ، فيثبت في وجه الاعداء ثبات الجبابة ليتأكدوا ان القوة
لا تنقصه ولا الحكمة ايضا في الدفاع عن ارضه ودولته وقد
وجهه بقوله :
« ان هذا هو الحل الوحيد الذي يقود الى السلم على
اساس شروط ممتازة ، لاتعطى لمن تلين قناتهم ساعة الخطر ، او
يعتريهم الضعف لدى الهجوم الاول » .

المعني يترك لبنان ويولي ابنه عليا

واعطى الامير فخر الدين ابنه جميع الارشادات اللازمة
لامير شاب سيتسلم قيادة الدروز وحلفائهم ضد حلف قسوي
من الاعداء المتألبين . ثم اقلع بعد ذلك الى « ليفورن » في امارة
توسكانة ، ثم الى فلورنسا .
وسرعان ما التشر جيش الباشوات في مزارع سوريية
واريافها ، وكان حصار صيداء اول خطوة في الحرب . وكان الامير
علي في انتظارهم هناك ، فجمع جيشه وسار على رأسه ، فخورا
بان يقوم مقام ابيه وهو في هذه السن المبكرة . وكان المواردنة
يهرعون اليه ، فيضمهم الى جنوده لمواجهة العدو .
كانت المعركة على اشد ما يكون من العنف والضراوة ،
ولكن الامير عليا انزل بالاتراك اعظم الخسائر ، مشنتا صفوفهم ،

مقاوما في عناد وثبات ، حتى ارغم جحافلهم اخيرا على الفرار
مهزومة شر انهزام •

وهكذا فازت صيداء بهذا النصر الكبير ، ونجت من الحصار
الذي كان يطوقها ، واحرز الامير الشاب الظفر التام •
وعلى الرغم من صغر سنه ، لم يغتر الامير علي بقدرة جيشه
وقوته ، بل رأى من الحكمة أن يمثل لنصائح ابيه التي زوده بها
قبل رحيله •

وبناء على تعليمات فخر الدين طلب من قائد الجيش المعادي
أن يقبل استعداداه للخضوع لاوامر السلطان على شرط أن يترك له
ملكية الارض التي حكمها اباؤه • فقبل الباشوات عرض الامير
علي لان السبب الاساسي لحقدهم كان وجود الامير فخر الدين ،
واقنعوا انفسهم بان رحيل الامير فخر الدين كاف لشفاء غليلهم ،
فقبلوا برضى تام ، عرض المنتصر في ارجاع الاماكن المغتصبة
الى اهلها •

ولم يجد الامير علي صعوبة في ان يحمل السلطان على قبول
شروطه ، ما دام في امس الحاجة الى نقل جيوشه الى مكان اخر
استعرت فيه الثورة •

وعدا ذلك ، فانه كان يضر لفخر الدين احتراماً فائقاً ، وما
كان يوماً مقتنعا بان الاعمال التي نسبت اليه ، كلها صحيحة ، فقد
كان يعتبره رجلاً مشغولاً بالعظمة ، أكثر مما هو انسان شغب
وتدمير •

وبالاضافة الى ذلك ، كان السلطان يعتقد انه من الصدق
وصفه بالتسامح مع مختلف الاديان المعروفة في بلاده ، ولكن
ذلك التسامح لم يكن جريمة بالنسبة اليه هو - وهو المعتاد أن

يضحي بالامور الدينية المقدسة ، في سبيل شهواته - كان الدين حسب عرفه فضيلة سياسية ، لذلك لم يمانع في قبول السلم من الامير علي ، متقبلا عرض الطاعة برضى وارتياح .
واحرز الامير علي بذلك ، انتصارا مزدوجا ، في احلال السلم في ارضه ، وتثبيت الامن والراحة في نفوس ابناء شعبه .
واستطاع ايضا ، جريا على سياسة ابيه الحكيمة في ادارة شؤون الحكم ، أن يثبت القوانين الاساسية للبلاد ، والحقوق التامة ، والعدالة للشعب ، مشجعا التطور التجاري ، مانحا الاجانب امتيازات توفر لهم العمل المنتج ، مظهرا في كل الميادين حكمة ومهارة لا يقوى عليهما الا من مارس الحكم مدة طويلة ، وشعاره اتباع ارفع المبادئ الشريفة .
هذه السيرة لامير شاب ، لا تبدو غريبة ، او مبالغ فيها لدى من يعرف المبادئ التي نشأ عليها الدروز الذين يعتقدون ان السلطة ليست الا لسعادة الشعوب .
ما هي السعادة التي يجنيها العالم ، اذا لم تستأصل من نفوس الامراء الغرائز الممقوتة الدينية ؟
اذا لم يكن الدروز ، قد استوحوا مبادئهم من الضمير الانساني ، فعلى الاقل ، لا يمكننا الجدل ، في أن رؤساءهم ساروا بوجيه ، مدركين انه محرم عليهم السير في طريق غير انسانية .

في عهد السلطان مراد

عكف الامير علي على انعاش مقاطعاته متخذا الحياد في خلافه

الامبراطورية بين عثمان ومصطفى وكان ان خلع الاتراك مصطفى ،
ووضعوا على العرش مرادا الرابع .
كان تسلم هذا الاخير الحكم ، موافقا تقريبا ، لعود الامير
فخر الدين الى وطنه .

وبالرغم من غياب الامير فخر الدين تسعة اعوام عن وطنه (١)
فان مشاريعه التي كان ينوي اكمالها ، لم تبرح لحظة من مخيلته ،
بل على العكس ، فانه استفاد من اقامته في اوروبة ، ليتم كل تلك
المشاريع .

اتنا لا نشك ابدا ، في انه حمل دوق توسكانه ، على ان
يرسل اليه الجيوش عند الحاجة لمناصرته ، وانه كان بين الاميرين
معاهدة صداقة ومحالفة .

وهكذا برز فخر الدين (٢) في دولته وبرفقته عدد كبير من
الفنانين الفرنسيين والايطاليين المهرة الذين الحقهم بخدمته .
كان الجميع ينتظرون أن يتسلم الامير فخر الدين في الدولة
المرتبة الاولى التي كان قد عهد بها لابنه علي ، ولكن امورا
سياسية صرفته عن ذلك ، فاكتفى برتبة قائد للجيوش .

ولكنه بالرغم من هذا اللقب المتواضع ، وهذه الوظيفة
البسيطة بقي يقود سرا زمام الحكومة ، مصرفا الامور حسب
مشيئته ، متابعا المشاريع التي لا يمكنه الانصراف عنها مسوقا
بطموحه ورغبته في التقدم .

١ - يقال ان غيبة الامير عن لبنان كانت خمسة اعوام وبضعة اشهر .
٢ - كانت عودة فخر الدين الى لبنان سنة ١٦١٨ نازلا في ميناء صيدا . وقد
هاجه الحنين في غيابة فجهاد مرة في مركب الى الشواطئ اللبنانية ، وقابل اخاه بعد
ان نزل الشيخ خاطر الخازن ليلا الى دير القمر لاهلام الامير يونس بمجيء اخيه .

وكان هذا الطموح الذي فطرت عليه نفسه ، يدفعه الى ملاحقة مواطن الباشوات فينتصر عليهم ، ويغتصب منهم في كل مرة اماكن جديدة .

وتوصل الامير فخر الدين ، عن طريق اصدقائه الذين يعتمد عليهم في البلاط العثماني ، ان يجعل اشراف دمشق يوالونه ، ويشعلون نار الثورة في المدينة ضد الباشا .

وكانت هذه الضربة الجريئة ، حاسمة ، في اتمام مشاريع فخر الدين ، لو لم تحقق هذه الاضطرابات في مهبها . ولكن مع الاسف ظهرت مساعيه ونياته ، فثار الباشوات مجتمعين ، وراحوا يشكونه الى البلاط ، ليفسدوا خططه ، ويحطموا اماله .

كان مراد الرابع يحكم في ذلك الوقت كما نوهنا سابقا ، وكان سلطانا مستبدا مجرما ، حذرا ، متيقظا ككل ملك ظالم ، سيء السريرة ، يتأكله الجشع والرغبة في ابتزاز المال . وسلطان تلك صفاته ، لا يمكن الا ان يحقد ويغضب من مساعي فخر الدين .

وكان مراد لا يكتفي باخضاع هذا المتمرّد ، والسيطرة عليه . بل كان يبغى القضاء الكلي على الدروز غسلا للاهانة . وهذا لا يستغرب من سلطان يعيش في نفسه حب الاجرام .

تقدم الاتراك من كل جهة ، بجيوش كثيرة ، ليحاصروا فخر الدين . واصدر السلطان الاوامر المشددة ، للضرب دون هوادة ، فتوقع الدروز ان تهب عليهم اربع عاصفة ، يمكن ان تهددهم .

ولكن بالرغم من غضبة السلطان الرهيبة التي تفجرت ، وبالرغم من العزم الثابت الذي ازمع عليه لسحق الامير وابادة الدروز ، وجد المعني في البلاط العثماني افرادا تجرأوا على ان

يهدثوا ثورة مراد وتعديل خطته ، فراح بعضهم يعدد الخدمات التي قام بها فخر الدين في سبيل الامبراطورية ، كابعاد عصابات الاعراب ، واخضاعها ، في حين اخذ بعضهم الاخر يمتدح خصاله واخلاقه . اما اصدقاؤه المتحمسون له ، فقد برروا فتوحاته ببعض الحجج الموهومة .

ولكن مرادا لم يضعف تحت تأثير هذه الحجج ، فبقيت الجيوش تسير لتنفيذ الخطط حسب الاوامر السابقة ذاتها . وعندما علم فخر الدين حقيقة ما جرى ، فكر في طريقة تخرجه من هذا المأزق دون اراقة دماء . وقد تحقق ما رغب فيه ، وما توقعه بلجؤته الى الصدر الاعظم معلنا له الصداقة والطاعة ، واعد اياه بالتنزل له عن قلعة الفرنجة ، وقلعة بعلبك اللتين لم يمض على الاستيلاء عليهما وقت طويل .

وكان هذا الوعد مغريا ، فقبله الصدر الاعظم ، وتولى تبرئة فخر الدين لدى السلطان حتى استطاع الغاء جميع الاوامر المتخذة بحقه .

وهكذا مرت العاصفة الجديدة بسلام ، غير ان الصعوبات والعوائق التي لاقاها الامير الدرزي ، كانت سببا كافيا للتخفيف من حدته وتلطيف اساليبه .

ولكن نفس فخر الدين ، كانت أرفع من ان تتقبل الظهور بمظهر الرعب امام الاخطار ، بانكسار وهزيمة .

الرجولية الحق

هناك رجال ولدتهم الطبيعة وفي اعماقهم ارادات لا تقهر ،

هؤلاء لا يرون في الامور عظمة الا بقدر ما تحقق لهم من فوز ،
ومهما كانت الطريق المؤدية الى النصر مخفوفة بالاعطار ، فانها
تثير فيهم القوة والعناد دون ان تعرف قلوبهم اليأس او تخاف
الهزيمة •

واذا اصاب هذا النوع من الناس الهوان يوما فانهم لا
يفقدون الامل في النجاة وانما يستمرون في العمل ولا ييأسون •
وان تظاهروا حيناً بالخضوع والطاعة ، فما ذلك الا ليتخذوا من
وضعهم سبيلاً الى خطوة اشد جسارة •

اننا نشبه هؤلاء الرجال بتلك السيول التي تشاد في وجهها
الحواجز المتينة العالية لوقف طغيانها وحجزها ، ولكنها ، وقد أبت
التوقف بسبب السدود ، تظل تحاول بقوة اختراق السداو نفسه من
اساسه ، لتتمكن من متابعة الاندفاع •

على هذا النحو كانت شيم فخر الدين • لقد جمد السلطان
مراد مساعيه ، فرأى انه لا يستطيع المقاومة علناً ، ما دامت تدبر له
مؤامرات ودسائس هائلة قد تحطمه اذا لم يتداركها •

عندئذ عزم على ان يتابع اعماله دون ضجة ، فعمد الى تعزيز
ثروة بلده ، وتقوية نواحي نشاطاته ، وزيادة تدريب جيشه ،
وانعاش تجارته ، دون ان يتوانى عن احتلال بعض المواقع من وقت
لاخر ، وتحصين اماكن جديدة ، معززا كل ذلك بحجج دامغة
تجعل من مشاريعه امراً مستحجاً لدى البلاط العثماني •

وبهذا المجهود المختلف الاساليب ، ادرك فخر الدين سنة
١٦٣١ سعادة عظيمة ، لرؤية ارضه تأهل بالسكان ، اكثر من اي
بلد في الشرق ، وكان شعبه ثرياً محظوظاً ، كما كان هو نفسه
اقوى امير في آسية •

ليس اجمل من ان يرى المرء السلام يغمر تلك الربوع
الجبيلة .

ان وحدة الدروز الكاملة ، والذوق واللفظ اللذين تميزوا
بها لاحتكاكهم بالاجانب الذين انعشوا تجارتهم . ولخصب
ارضهم ، والسعة الغامرة كل شيء ، والاسر المتعددة الغنية ،
والحاكم الذي تعشقه القلوب ، ويتسابق الناس الى ارضائه في
شتى المواضيع ، كل هذه الامور الرائعة ، سنراها ، مع الاسف ،
تزول .

ان الامن الذي نعم به الدروز ، كان له اجل محتوم ، وهذا
الاجل كاد يكون هذه المرة الضربة القاضية ، على الدولة الدرزية .
كان فخر الدين قد درس امكانية قواته ومدى ثرواته ،
دراسة دقيقة فكان يعرف قدرة جيشه ، وقوة فكره الذي ينجيه
ساعة الخطر ، بالاضافة الى الرعب الذي يتركه اسمه في قلوب
شعوب آسية وامرائها . وقد اغتر بالدرجة التي وصلت اليها قوته ،
فظن ان باستطاعته ان يحقق جميع الاعمال .

ان من البلية ان يخطيء الانسان في تقدير قوته ، فالنظرة
المتعجرفة الى خصاله الخاصة ، تقوده الى الضياع ، اذا كان هناك
من يفوقه قوة .

اذا كان من الجهالة ان يتنكر الانسان لتلك الصفات ، او ان
يهملها ، فمن الجنون كذلك ان يعتمد عليها بشكل يجعله يعتقد
انه ليس ثمت من يساويه او يفوقه ، وان المال يخلد اعماله وقدرته
ساعة يشاء ، متغلبا على الحكمة البشرية .

وكان فخر الدين يتابع دوما امتلاك اراضي الباشوات
جيرانه ، وكان يحصن مواقعه تحصين سيد يستعد للحرب . وكان

امير توسكانه - ليحقق جزءا من المعاهدة المعقودة بينهما - قد بعث اليه بعدد كبير من القذائف والمحاربيين والمهندسين والخبازين، وكان جميع هؤلاء الرجال يعملون بمثابرة وجهد ، منهمكين في تجهيز القلاع تجهيزا يمكنها من القيام بمقاومة عنيفة طويلة الامد .

وكان أمير توسكانة قد أعد عشرة آلاف مقاتل ، لارسالهم الى فخر الدين حالما تنتهي الحرب بين فرنسا واسبانية ، ولكن هذه الحرب طالت وامتدت ، فرأى امير الدروز ان يستعيض عن معونة توسكانة بمعاهدة يرتبط بها مع الامير رباح ، وهو احد امراء الاعراب ، وجرب ان يرشو أيضا محمد باشا ، سيد القدس ، وابنه مصطفى بك فنجح في اغراء الفريقين .

الامير الدرزي يعود الى خطسة الفتح

وبعد ان تم له ذلك ، رفع فخر الدين سيف الثورة عاليا ، وياشر فتوحاته في سورية .
كان ذلك كافيا لاثارة نقمة السلطان مراد ، خصوصا بعد ان بدأ الامير فخر الدين يعمل لاختضاع المزيد من البلدان ، ومن جهة ثانية ، اتفق باشوات دمشق وطرابلس وغزه ، مع امراء فريخ وسيفا وطريه (١) لانهم خافوا من سطوة امير الدروز وخشوا ان يصبحوا هم انفسهم ، بعد ذلك هدفا لانتقامه ، ورأوا ان يستفيدوا من

١ - الامير طريه ، هو ابن العارفي حاكم اللجون . سنة ١٦٣١ ارسل الامير فخر الدين ، جنبلات القادم من حلب ، الى شريف أنون للمحافظة عليها من اعتداءات الامير طريه المذكور .

الاحوال الحاضرة ليقضوا على امل فخر الدين بعطف السلطان ،
فجددوا شكوايهم ضده ، تلك الشكايات التي رددوها غير مرة ،
وهي ان فخر الدين يحتقر الاسلام ، ويهدم المساجد ، ولا يؤمها الا
مرة في السنة ، ولا يصوم رمضان •

وقالوا علاوة على ذلك انه عقد معاهدة مع دوق توسكانه
الذي تحمي مصالحه قنصليته في صيدا ، وان الامير يسمح لبعض
المالطين بان يرسوا سفنهم في موانئ لبنان مهربين فيها العبيد ،
وانه يساعد المسيحيين على اذى المسلمين تاركا الحرية لاولئك بان
ينبوا الكنائس ويشيدوا الاديار في الارض التي لا ينفك يفتصبها
من جيرانه الذين ينهب ممتلكاتهم ويشغلهم بالضرائب ، ويتآمر
ضدهم بالاتفاقيات التي يعقدها مع الاعراب والمسيحيين •

واتهموه ايضا بانه يبغى من ثورته واعتداءاته ، ان يصبح
سيد القدس ، فيتوج ملكا عليها ويثبت فيها الدين المسيحي •
وهذه الاقوال ، كلها بدت كأنها حقيقة ، لان مخططات الامير
فخر الدين غلفتها الاسرار ، حتى بدت غامضة • وهذا ما جعل
العثمانيين يصدقون المقالات الكثيرة التي تناولت فخر الدين ،
فسيف هذا الامير يثير الرعب المميت في كل مكان واماله لا تعرف
الحدود ولا تنهيب اي امر •

وقد عرف اعداء امير الدروز كيف يثيرون نقمة مراد عليه ،
فزعمت شكاياتهم ان مملكة الدروز خطر على الدولة الاسلامية ،
وان اميرهم مجرم في ما يبيديه من بأس وجراة •

ولا تخفى ردة الفعل التي تحدثها هذه الشكاوى في مملكة
اسلامية ، ولا سيما ضد انسان جسور مثل الامير فخر الدين •
والحقيقة ان الرغبة في السيطرة على بلاد الدروز الفتية اثرت

فى السلطان مراد اكتر من الشكاوى المبالغ فيها كثيرا ، فقد اسرع الى جمع اكبر عدد من قواته عازما على ابيادة الامير فخر الدين وقواته . وعين احمد كجك ، باشا دمشق قائدا لجيش مؤلف من ستين الف مقاتل . وصدرت الاوامر كذلك فى الوقت ذاته الى باشوات حلب ، والقاهرة ، بان يؤلفوا النواة الاولى لجيش الغزو من ١٦٠٠٠ مقاتل . وطلب من امراء فريخ ان يضموا رجالهم الى هذا الجيش ، كما ترأس قبطان باشا اسطولا مؤلفا من اربعين سفينة لمهاجمة السواحل فى وطن الدروز .

الأتراك يحاولون اغتصاب وطن الدروز

تلقى الاعداء هذه الاوامر بفرحة عارمة ، وكان بجشع الأتراك وجههم للمال ، يدفعانهم دفعا الى محاولة الاستيلاء على وطن الدروز المشهور بثرواته المتعددة .

اما فخر الدين فلم يتأثر بغضب العثمانيين ، ولا عرف الاضطراب بل بدا واثقا من نفسه ، وقادرا على الحرب والدفاع . واعد الامور على مايرام ، فجهز جيشا مؤلفا من خمسة وعشرين الف مقاتل ، قسمه فرقتين الاولى كانت تحت امره الامير علي وكانت مهمتها مهاجمة باشا دمشق الذي لم يكن حينئذ قد جمع الا اثني عشر الفا فى جيش منظم ، والثانية يرئسها الامير حسن والامير يونس ، الاول ابن فخر الدين والثاني اخوه . وكانت مهمة هذه الفرقة ان تتقدم نحو باشا القاهرة الذي جمع اليه الامراء . اما فخر الدين فقد اخذ على عاتقه حماية الشاطئ . وهكذا كان ، واخذ الدروز ينتظرون العدو بقدوم ثابتة ، وقلب

جسور ، وعزيمة لا تقهر •
كان الباشوات يتقدمون في حذر ، اما قبطان باشا فكان قد
اقلع بسفنه ، ولكنه لم يكن من المنتظر ، بل لم يمر في فكر احد ان
اسطولا جاء لاختضاع عدو مثل فخر الدين ترغمه سفينتان لا غير
على تغيير وجهة سيره ، والبقاء بعيدا عن هدفه •
كانت السفينتان انكليزيتين ، في خليج « سيو » وكانتا على
اهبة العودة الى انكلترا ، بعد ان عبأتا حمولتهما قمحا •
رآهما قبطان باشا ، فبذت له الفرصة سانحة للنهب ،
واللصوصية ، فتقدم نحوهما ليأسر الملاحين ، ويستولي على
الحمولة ، ولكن ما كاد الاسطول التركي يصل الى السفينتين حتى
قطع الانكليز الجبال مستعدين للمعركة بكل شجاعة •
وبالزغم من التفاوت في العدد والقوة ، فقد ابدى الانكليز بسالة
فائقة ، بعد عراك دام ثلاث ساعات ، اغرقوا خلالها ، الى القاغ ،
ثلاث سفن تركية • غير ان كثرة عدد الاتراك تغلبت اخيرا •
وصعد الاتراك الى السفينتين الانكليزيتين متدافعين ،
متسابقين ليشبعوا حقدهم وجشعهم ، ولكنهم في الحقيقة كانوا
يتسابقون الى الموت •
اذ ما كاد الانكليز يتأكدون من خسران المعركة ، حتى
اشعلوا النار في مستودعات البارود ، فبادوا والاتراك المعتدين
معا ، بعد ان اخذت النار تلتهم السفن •
وهكذا اصاب التخريب السفن باجمعها ، وعمت الاضرار ،
وقد بلغ عدد القتلى والمشوهين الف ومئتي رجل • وعندئذ اضطر
قبطان باشا الى العود الى استانة لترميم السفن الباقية ،
والاستعاضة عن القتلى برجال جدد •

عيل صبر الباشوات ، وضاقوا ذرعا بالانتظار ، اما قائدهم
الطماع المترقب الفرص للنهب ، الذي انتظر عبثا قدوم الاسطول ،
فقد ارسل رسولا الى الامير فخر الدين ينذره بوجوب سحب
قواته من الاماكن التي كان قد احتلها من قبل وبالخضوع للسلطان
مباشرة .

لكن الامير فخر الدين اجاب الرسول بان الانذار يجب ان
يوجه الى ابنه علي الحاكم الفعلي للبلاد في تلك الفترة ، اما هو ،
أي الامير فخر الدين ، فليس سوى موظف او جندي لدى ابنه علي .
وصرف الرسول بعد هذا الجواب من بيروت ، حيث كان
يقيم فخر الدين الذي وجه ، من ساعته ، الى الامير علي امرا
بوجوب الانتقال الى صنف ، لمواجهة جيوش الامراء المتحدة
المقبلة لنجدة باشا دمشق (١) ونصحه بالايدخل مع العدو في معركة
منظمة ، بل عليه ان يتبع معه طريقة المناوشات ليضعفه ويمزق
صفوفه ، باعتماد ابرع الحيل الحربية لارغام جنود الاعداء
على التفرق والتشتت .

وما كادت هذه الاوامر تصل الى الامير علي ، لاتباع
الطريقة الواجب انتهاجها ، حتى كان الرسول قد وصل الى
القائد العام وبلغه جواب امير الدروز .

وقد بغت القائد من هذا الجواب الذي لم يكن ينتظره ، بل
كان يمني نفسه بالهدايا الثمينة بعد ان ابلغ الامير فخر الدين
الانذارات السلطانية .

وبعد ان خابت امال الباشا ، ومنيت اعماله بالاخفاق ارسل

١ - هو احمد حافط باشا الذي قاد جيوش الانتكشادية لمقاومة فخر الدين برا
بعد ان هاجمه قبطان باشا بحرا سنة ١٦٠٩ . وقبطان باشا هذا كان وزيرا للحربية .

الى امراء فريخ (١) وسيفا (٢) يطلب منهم الاسراع بجيوشهم
الى صفد ، وهو المكان الذي اختير للقاء العام .

معارك رهيبة

اما الامير علي فكان يقود جيشه بنفسه ، وكان عليه ان يستغل
مركزه واوامر ابيه كي يستطيع القضاء على مطامع القائد العدو ،
ولكنه عمل بوحى غروره واعتداده بجسارته ، وسار على رأس
جيشه وفي نفسه ثورة من الحمية تغلي كالبركان . والتقى جيشه
جيش باشا دمشق والتحتم الجيشان في معركة حامية . من
الواجب ان تقدر جسارة الامير علي وامتدحها ، وان تكن تنافي
الحكمة والقدرة ، والجسارة غير المتهورة ، ولكنها على كل حال ،
ليست بالامر المكروه .

وسرعة الامير علي في اصدار الاوامر ، وشجاعته وخبرته في
ادارة المعارك ، وحرصه على ان يكون مثلاً لرجاله في الشجاعة
والاقدام ، تجمعت كلها لتجعل منه قائدا عظيما .
وقد قاوم ببطولة نادرة وخطط بارعة ، اولئك الاتراك

١ - استولى بنو فريخ ، في زمن فخر الدين الاول على مقاطعة بعلبك التي كان
يحكمها امراء بني حرفوش الشيعيون ، وقد قويت شوكتهم ، وامتد سلطانهم الى
نابلس .

٢ - كان امراء بني سيفا يحكمون بلاد مكار ، وقد اخلصوا للدولة العثمانية
اخلاصا دفع العثمانيين الى تعيينهم باشاوات لولاية طرابلس . وقد اشتهروا
بالجود والانعام على الشعراء ، ولكنهم ضايقوا الناس بالضرائب الكثيرة . وكان
سوء المعاملة الذي لقيه التجار الاجانب من هؤلاء الامراء فرصة للامير فخر الدين
الاول ، فانتهازها ليشجع التجارة في مرفأ صيدا ، وتمكن من ان يجذب اليه اكبر
عدد ممكن من التجار الاجانب .

الذين جعلهم طمعهم في النهب قوة لا تغلب ، ولذلك ما كادوا يتراجعون ، وقد تبعثرت صفوفهم ، حتى عادوا يدافعون عن مواقعهم محاولين استعادة ما فقدوه منها .

وكانت خسارة الفريقين في هذه المجزرة متساوية تقريبا ، ولكن بأس الامير علي زرع الذعر في قلوب الاتراك ، فمزق فرقهم وشتتها ، واغرقهم في بحر من الفوضى يكاد يتعذر عليهم النجاة منه ، بعد ان قتل منهم في ساحة المعركة ثمانية الاف رجل . وهكذا خرج الامير علي من تلك المعركة رافعا اعلام النصر ، وان يكن قد فقد فيها سبعة الاف من رجاله ، ولم يبق لديه سوى خمسة الاف كان عليهم ان يقابلوا الجيوش المتحدة مع جيش باشا دمشق المدحور .

وباشر الامير علي معركته مع هذه الجيوش بعد يومين . والغريب في الامر ان الامير عليا ، وقد نسي انه لم يبق له من الرجال سوى خمسة الاف نهكتهم معركة الامس ، انقض بسالة تفوق حد الوصف ، على القوات المتحالفة ، وراح يحاربها بشراسة لا تعرف اللين ، فقتل من الاتراك نحو تسعة آلاف ولكن الذين سلموا من جنوده كانوا لايزيدون على خمسين مقاتلا .

وبالرغم من كل ذلك لم يكف عن القتال بهذه الشرذمة الصغيرة الباقية لديه ، ولكن الحظ خانه ، وبالإسف ، في تلك الساعة اذ سقط فرسه تحته ميتا لشدة الكلال ، واغتتم احد الجنود الاتراك عندئذ تلك الفرصة السانحة واسرع كي يقبض على الامير البطل الذي لم يلق السلاح من يده .

ورفض القائد الدرزي المغوار الاستسلام بكل اباء ، وصمم على الاستمرار في المقاومة حتى الرmq الاخير ، غير ان الاتراك

قطعوا له العهد بالابقاء على حياته فألقى سلاحه ، وعندئذ فتك به
الجندي التركي غدرا غير حافل بالعهد المقطوع .

وقطع الجندي اللثيم اصبع الامير علي غنيمة ثمينة وحملها
الى القائد العام الذي بعث بها الى السلطان اشعارا بالنصر الذي
احرز ، وبعدئذ تقدم بجيوشه مسرعا لمحاربة الفرقة الثانية التي
يقودها الاميران حسن ويونس .

لقد كان من الحكمة ان لا يجازف الاميران في خوض معركة
لا تتعادل فيها قوتها مع قوة العدو ، ولا سيما ان النصر الذي
احرز في معركته مع قوة الامير علي ، زاده حماسة وصلابة عزم .
غير ان الدروز المشهورين بشدة البأس والشجاعة الطبيعية النادرة
التي تجعلهم يستخفون بالموت ، لم يقيموا وزنا لما رأوه من استعداد
العدو ، فانتظروه كي يقابلوه في معركة حاسمة .

ودارت رحى هذه المعركة ، وكانت من العنف والشدة
والاستماتة بحيث اتخذت طابع الشراسة ، وكانت مجزرة رهيبة ،
لم يسلم بنتيجتها سوى الف وستمئة رجل من جيش العدو معظمهم
مشخن جراحا .

اما الدروز الذين نجوا ، فقد نشبت في صفوفهم الفوضى ،
بعد ان سقط الامير يونس قتيلا ووقع الامير حسن اسيرا في ايدي
الأتراك ، وانسحبوا من المعركة ، وهكذا تم للعدو النصر . وكانت
شجاعة الامير الفتى المتحمس ، سببا في القضاء على قوات الدروز
وتعريض بلادهم للتخريب والنهب . وكل ذلك مبعثه غرور الشباب
الذي تخطى حدود الحكمة .

وكان فخر الدين ، عندما ظهر الاسطول العثماني في مياه
طرابلس ، يجهل مصير قواته وما قام من أحداث ، وقلقه على ولديه

وجهله ما افضى اليه امرهما اغرقه في بحر من الهموم واثار في نفسه
الشكوك مما جعله يتهم بعض رجاله بالخيانة •
وكان عليه في مثل هذه الحال ان يقر ، دون ابطاء ، الخطأ
التي يجب ان يستقبل بها قبطان باشا •
في مثل تلك المواقف ، كان فخر الدين يعرف ان التعقل وحسن
التصرف يفرضان الاعتدال والتظاهر بالاخلاص للسلطان ، فاخذ
في ارسال فرقه العسكرية الى جبل لبنان •
اما عدد جنود تلك الفرق فلم يكن يتجاوز عشرة آلاف بما
فيهم الحرس الذي يبلغ عدد افراده ثلاثة آلاف •

فخر الدين ينقل من بيروت الى صيدا

ترك فخر الدين بيروت ، مع جنوده وخدمه متجها نحو
صيداء ، وما كاد يصلها حتى ارسل ابنه منصورا الى قبطان باشا^(١)
حاملا الهدايا الثمينة ، وصرة فيها عشرة الاف ليرة ذهبا •
وصل منصور الى القبطان ، فقدم اليه الهدايا ، مؤكدا له
باسم والده الامير ، ان هذه الهدايا ما هي الا دليل الاخلاص
للامبراطورية العثمانية وان اباه ما كاد يبلغه نبأ قدوم قائد الاسطول
السلطاني ، حتى تراجع بجيشه بعيدا وهو على اتم الاستعداد
لان يذهب بذلك الجيش الى اي مكان تقتضيه مصلحة السلطان •
وقال ايضا ، ان الامير فخر الدين مستعد لان يخضع للاوامر
وان السبب الوحيد الذي حمله على التسلح هو محاربة العربان
واعدائه المجاورين •

١ - قبطان باشا هو قائد الاسطول التركي

تلقى قبطان باشا هدايا فخر الدين ، دون ان يحقق رغباته ،
بل فعل عكس ما يأمل امير لبنان ، اذ ابلغه انه سيحتفظ بالامير
منصور اسيرا لديه ، وانه عازم على التقدم الى صيداء ، بامر من
السلطان ، لاحتلالها والسيطرة على قلعتها .

كان الامير المعني ، ينتظر من قبطان باشا معاملة لائقة ، ولكنه
صدم ، وغدر الباشا كان يمكن ان يتحمله فخر الدين ، لولا اسر
منصور وحسن ، وموت علي ويونس ، وخسارة معركتين ، وابادة
جيشين ابادة شبيهة تامة .

كل ذلك وقع على فخر الدين وقوع الصاعقة .
منذ تلك اللحظة ، امسى فخر الدين فريسة الالم الممض ،
والذعر الشديد ، وتحلت عنه حكمته ، وغاب وعيه ، وثباته ،
فسيطر عليه اليأس .

ولم يبق فخر الدين كالماضي ، ذاك البطل المخيف بمبتكرات
عبقريته الواسعة النطاق ، وبفكره النفاذ الدقيق . . وبأس قلبه
الشهم ، الشريف .

لقد حل الضعف في نفسه ، محل أنبل الصفات واجملها ،
حتى لم يبق من السهل تذكيره بها .
انه الان رجل مذعور ، ويتوقع السقوط في الهوة في كل
آن .

ولم تستطع عروض المسيحيين المقيمين في صيداء والجوار
تقوية معنوياته ، حتى ولا الحاج حرس قصر المدينة ولا اخلاص
الموارنة والاعراب ، ولا محبة الشعب المتحمس الذي كان مستعدا
لقيام باية تضحية تفصل الاهانة وتساعد على الانتقام من
العثمانيين .

اجل ، لم يستطع كل ذلك ان يعيد فخر الدين الى حالته السابقة ، اذ اعتري فكره الشرود لفرط القلق والاضطراب •
وعاد سريعا من صيداء الى بيروت ، تاركا شعبه للاضطهاد وبلاده للنهب ، ومواقعه لتحكم منتصر ، متصلف ، تزیده حقارة نفسه ، حبا لتوجيه الاهانة وامعانا في الاستبداد •
انها عبرة رهيبة لمآل الثروة ، وبرهان حتمي للقوة الموجهة التي يخضع لها الملك والراعي على السواء •
واي ملك يستحق لقب « الكبير » ، كهفخر الدين ؟ اربعون سنة من الفتوحات •• والانتصارات •• والتقدم السريع الرائع ، في ظل حكومة عاقلة ، حكيمة ••

انها مرحلة طويلة من السنين ، كللت رأسه بالغار ، ولكنها لم تستطع في النهاية حماية ملكه من ذلك المآل المحزن •
والذي كان يحمل على الاستغراب ، هو ان الامير فخر الدين كان يسرع الخطو امام قدره القاسي ، كأنما كان يدعوه ليشيع فيه قسوته ، ويسابقه على حفر الهوة السحيقة •
ولم يكن في الحقيقة ، صعبا على فخر الدين استعادة الثبات في وجه عدوه • فقلعة صيدا وحدها كافية لمنع نزول قبطان باشا ، او بالاحراى لابعاده عن الشاطئ ، حتى ولو كانت حامية تلك القلعة متوسطة القوة •

والقلاع الاخرى التي كان المعني الكبير قد حصنها ، تستطيع كل منها على حدة ان تقوم بدفاع عنيف ، جاعلة ارض الدروز مقفلة امام غزو الاعداء •

وفرق الموارنة ، وجحافل الدروز كان بإمكانها ، لو اجتمعت واتحدت ، ان تؤلف جيشا قويا قادرا • فضلا عن ان النساء قد

جئن فخر الدين مع ابنائهن طالبات الانضمام الى الجيش للقتال •
وفخر الدين نفسه لم يكن يجهل ان الامير رباحا ، امير
الاعراب ، كان مستعدا لنجدته ، وتمزيق صفوف الاعداء دون
هوادة ، والامعان في مقر الباشاوات نهبا واقلقا •

فكيف لم تستطع كل هذه الاسباب ان تعيد فخر الدين الى
رشده ، وهو الذي كان ما يزال كبيرا ، فضلا عن ان بوادر
التشجيع تلك تستطيع ان تجعل من اجبن الجنود بطلا مغوارا ؟
ولكن الغرابة تزول حين ندرك ان هناك قوة عليا تلعب
باقدار الدول ، لتنبه الشعوب الى ان في العالم سيذا واحدا
فقط لا يغلب •

وقبطان باشا كان شديد البراعة في الاستفادة من ضعفة
العدو ، واضطراب حاله •
وفي تلك المواقف ، تبرز الحنكة في اغتنام الفرصة المؤاتية ،
وهذه الحنكة ، أفي الاعمال الكبيرة كانت ، ام في الاعمال العادية،
هي التي تقود الى النصر •

لذلك اسرع قبطان باشا بالتقدم الى صيداء، مقيما نفسه سيذا
عليها بعد ان اقام فيها مقر الحراسة والجيش • ثم تابع سيره
فورا نحو بيروت •

حينئذ ، ترك فخر الدين بيروت ، منتقلا الى الجبال المجاورة
مع رجاله وامتعته ، ووجد قبطان باشا نفسه حرا دون مقاومة ،
ففتحت له بيروت ابوابها كما فعلت صيداء ، فعين عليها حاكما ،
وضع تحت امرته جيشا كافيا ، لمقاومة الدروز واعوانهم المسيحيين
والموارنة المنتشرين في البلاد ، اذا هم حاولوا استعادة تلك المدينة •

بعدئذ عاد قبطان باشا الى اسطوله ، مبحرا الى القسطنطينية
ليسلم الامير منصورا الى السلطات ، ويضع بين يديه مفاتيح قلعتين
من اكبر القلاع في فلسطين •

تلك كانت مهمة قبطان باشا • وما كان يريد ان يفعل اكثر
من ذلك ، خوفا ان يقع في كمين ، اذا حاول ملاحقة فخر الدين •
فتركه آمنا في جباله ، كيلا يخسر في لحظة ثمرة فتوحاته التي لم
تكن قد ثبتت بعد ويخشى عليها من التزعزع •

اما باشا دمشق ، الذي كان اشد حقدًا وعنادا من القبطان،
فقد تابع تقدمه في ارض الدروز ، مقترفا ضروب العدوان في كل
مكان ، مرتكبا مع حلفائه جميع انواع العنف والتعديات والمظالم •
ولكن في الوقت عينه ، كانت ممتلكاته فريسة لتخريب
رباح ، امير البدو ، الذي اخذ يغزو البلاد في قسوة بالغة •

ووجد جيش العدو ان الحصارات المختلفة التي اقامها ،
كانت في الحقيقة لضعضة قواته ، فقلعة نيجا وحدها قاومت
مجهود المحاصرين اكثر من سنة ، وبالرغم من سقوط قلعة
غزير ، وقلعة الملكة استر في صفد ، وقلعة بعلبك ، وقلعة القديس
جان في عكا ، فان اقل تحرك او هجوم ، كان يمكن ان يساعد
على استرجاعها جميعا اذا تم تحت اشراف الامير الدرزي الكبير •
وحتى عزلة هذا الامير ، ولامبالاته ، كانتا سببا جديدا ،
دفع الى اضطراب الاعداء ، فقد رأوا ان هذه البادرة ليست
جبا ولا خوفا ، وانما هي حيلة يقوم بها المعني الكبير للقضاء
على جيش المتحالفين •

قلق باشا دمشق قلقا شديدا ، وانشغل باله ، فعزم على

ان يطلب من الباب العالي نجدة سريعة كافية • ويؤكد للسلطان
في طلبه ان الامل بالنجاح ضعيف جدا • ارسل السلطان الى باشا
دمشق النجدة ولم يكن احد يشك في ان في سلوك فخر الدين
هذا المسلك خدعة متوقعة ، فموظفوه كانوا يتوقعون منه ضربة
بارعة حازمة ، ينقض بها على الاعداء المتحالفين ، انتقاما لاهله ،
وممتلكاته •

وما كادت الريح والجو يؤتيان ، حتى ارسل السلطان
الى باشا دمشق ، النجدة التي توسل اليه بارسالها ، فخرج جعفر
من ميناء استانة ، بجيش مختار ، مؤلف من عشرة الاف مقاتل
وزعوا على خمس واربعين قطعة حربية •
وكان جعفر يحمل امرا بان لا يعود الا بعد القبض على
فخر الدين نفسه ، لان شعبا مقاتلا قويا ، كالدروز لا يمكن
اخضاعه الا بهذه الطريقة •

وكان قواد الامير وحلفاؤه لم يفقدوا الامل بعد ، بأعجوبة
تفجرها مواهبه ، حتى كان وصول الاسطول العثماني ، فما كاد
جعفر ينزل الى البر ، حتى رأينا ان الامير ما يزال يقف الموقف
عينه ويبقى مكتوف اليدين خيال هذه الاحداث ، فاسقط في
يد الجميع •

وانه لامر غريب ، ان لا تستطيع جماعة من الشجعان
ان توجه الرأي في وجهة صحيحة لتغيير سير الامور ، فيقعدها
الخلافة وتمسي ضحية جمود رجل تضعف رأسه وفقد شجاعته (١) •

١ - يظهر ان ثورة الكاتب مردها الى كرمه للعثمانيين ، لانه لم يشأ ان يجد
لفخر الدين عذرا في اتخاذ هذا الموقف ! ان نقاس فخر الدين لم يكن ، كما اسلفنا ،
عن جبن ، وانما حنكة وخبرة ، لانه لم يكن وانقا في الحقيقة من نبات حلفائه الذين
كان قد شلهم انتصار الاعداء •

وهنا لا يمكننا ان نقف دون أن ندرك اهمية القائد في حياة الشعوب ، والدور الذي يمثله في شرف النصر وخزي الهزيمة على السواء * (١)

بعد هذه البادرة الاخيرة لليأس الذي غمر نفس فخر الدين ، فتح الجميع اعينهم ، وادركهم الاخفاق من كل ناحية ، فانصرفوا عن اميرهم الذي تخلى عنهم * وقد وجد ، كل بمفرده ، ان عليه ان يترك اميره لهول مصيره ، وهكذا فالحب والاعجاب اللذان غلغا القلوب فيما مضى ، حل محلها البغض والكراهية والمقت * وازاء هذا المصير ، انصرف كل امرئ الى خدمة مصلحته الخاصة ، مهتما فقط بصيانة نفسه * وانسحب الاعراب بما غنموا ، وسكن الموارد منصرفين الى اعمالهم وبقي الدروز المساكين وحدهم عرضة للنهب والسرقة والعنف *

اما الامير نفسه فقد كان يمني النفس بشروط شريفة ، تحفظ كرامته ، وتبقي على مركزه * ولم يكن فرار الشعب من حول فخر الدين عاما ، (٢) فقد بقي بجانبه خمسون رجلا ، آلوا

١ - نلاحظ ان الكاتب يكثر من الومظ والارشاد ، وما كان ذلك الا بؤادر الشؤبة الشعبية التي كانت تغلي في نفوس الفرنسيين . كان هم الكاتب ان يملك الملك ، متخذاً شخصية فخر الدين موضوعاً لتنفيذ غايته .

٢ - كثيرا ما يلحظ القارئ التناقض في الحديث ، وكثيرا ما يصادف تناقضا في الكتابة ، وضعفا في الارتباط . ان مرد ذلك الي الكاتب نفسه ، واني لم اشأ - امانة للترجمة - الا ان اورد النصوص كما جاءت .

وحاولت في الترجمة ان ابقى على اسلوب الكاتب دون ان اتصرف تصرفا خاصا في تكييف الجمل والتعابير ، او في تقديم بعضها وتأخير بعضها الاخر ، وما ذلك الا لاعطي الفكرة الصحيحة عن طريقة الكاتب فيما كتب ، وعن قدرته في الكتابة . ان اكتب ، كتاب تاريخ ، واسلوبه يتخذ طابع الاسلوب العلمي ، ولكن مؤلفه على ما يبدو لم يكن كاتباً مجيداً ، يلاحظ ذلك حتى من خلال الترجمة ، الادب او الناقد ، او من اعطى نعمة التدويع الادبي .

على انفسهم ان يشاطروه مصيره وشقاءه ، فتأثر المعني لافاتهم
اشد التأثر ، حافظا لهم محبة لا تفتر ، وقد برزت الشفقة التي
حركت قلبه في احاديث ضمنها حبه واماتته ، وعرفانه لجميلهم -
تلك الاحاديث التي استدرت الدموع من عيون الابطال دون
ان تندى لها جباههم ، ولكنه في النهاية ، عندما اعلن عزمه على
الخضوع ، ورغبته في الاستسلام ، صرخ مرافقوه البواسل
بصوت واحد ، مجتهدين في ان يولدوا في نفسه من جديد ، رأيا
معاكسا .

ولكن الامير بقي ثابتا عند رأيه ، معلنا انه يعرف الوسيلة
التي تحفظ السلم بينه وبين مراد ، ويدرك كيف يرضي بخله
وشحه ، ولا مجال للوصول الى ذلك الا عن طريق الخضوع .

لم يقتنع رجاله بهذه العروض ، راجين منه ان يستعيد
بأسه وثباته اللذين جعلاه دوما متفوقا على اعدائه في اشد
الحالات خطرا ، مقسمين انهم يفضلون الموت بنار العدو على ان
يقبلوا بمثل هذا المشروع ، فقبل فخر الدين بعد الحاحهم ،
وحزمهم ، وغيرتهم ، ان يلجأ الى خلوة آمنة يتعذر على العدو
الوصول اليها ، حيث يمكنه الانعزال بعيدا عن ايدي العثمانيين
ريثما يحين فصل الشتاء والامطار الذي لن يسمح لهم بغزو
الجبال ويرغم اسطولهم بعد ذلك على التراجع والانسحاب .

كانت خلوته في مغارة وعرة (١) يصعب الوصول اليها ، ضيقة
المدخل ، يبلغ طولها مئة وخمسين قدما ، وعرضها ثمانية امتار .

١ - هي قلعة شقيف تيرون .

بدأت هذه المغارة لفخر الدين افضل مكان يعتزل فيه ،
فاختزن فيها مؤننا تكفي مدة ستة اشهر . واقام فيها مع رجاله البواسل
الخمسين الذين اقساموا له الايمان المغلظة بان يستمروا في ولائهم
له ، ومحبتهم اياه التي لا تحول ولا يتطرق اليها ضعف .
اما الاميرال فلم تبارح مخيلته المهمة التي جاء من اجلها ،
فقد كانت اوامر السلطان صريحة ، وكان هو يدرك جيدا ان لا
قيمة لاقتصاره اذا افلت فخر الدين من قبضته .
واقلق هرب الامير المعني القواد المتحالفين جميعا وخصوصا
جعفر الذي كان اشداهم ارتباكا وذعرا .
وبعد ان اخفقوا جميعا في معرفة المكان الذي لجأ اليه
فخر الدين ، اقروا محاصرة المغاور ، جازمين بانه لا يمكن الا ان
يكون اتخذ من احداها حمية له . ظانين انهم ، بهذه الطريقة ،
يرغمونه على الاستسلام ، خوفا ان يتعرض للموت جوعا .
وقد تعاونت جميع الجيوش المتحالفة على محاصرة المغاور ،
فاستغل الاعراب هذه الفرصة كي يتابعوا قطع الطرق والاعمال
للصوصية ، معنيين في التعديات ونشر الذعر بين الاهلين ، وسرعان
ما انتشروا في مواطن الباشوات يعملون نهبا وتخريبا بصورة وحشية
لا يرافقها شيء من اللين ولا الشفقة . فاحدثوا الدمار في كل
مكان ، وارغموا الاهالي على البقاء داخل اسوار المدن ، حيث لم
يبق بينهم من يجرؤ على الخروج .

عمت الفوضى ، واثارت الفتنة في اكثر المقاطعات ، ورأى
الباشوات انفسهم في اشد الحاجة الى تجنيد قواتهم لمقاومة
الاعراب المعنيين في التعدي والافتان ، فعادوا الى مقاطعاتهم ،

وبقي جعفر وحده مع جيشه الذي كان قد نزل الى البر •
لقد كانت تلك الفترة ، التي ارتبكت فيها احوال اعداء فخر
الدين مدعاة فرح الامير المعني ومبعث امله ، فقد اوشك الفصل
الذي يترقبه ان يحل •• وهذا الفصل هو ان يؤمر الجيش
البحري العثماني المحاصر بان يعود الى السفن •

فقد ضايق هذا الجيش ان يضطر الى متابعة الحصار ،
وخصوصا ان الشتاء قد اخذ يقلقه ، وارتفع صوت تدمره عاليا ،
واخذ الجنود يهددون بمغادرة المعسكر •

ولكن الاميرال القائد عرف الوسائل التي تمكنه من الثبات
وتضمن له احترام الجيش ، وقد وفق الى تهدئة الاضطراب
في نفوس الجنود ، بما بذله من اللطف ، والترغيب في العزة ،
وبجعله نفسه المثل الصالح الذي يحتذى •

وتساقطت الثلوج وتراكت حتى لم يبق من سبيل لابقاء
الجيش في البراري يعاني من الزمهرير والقلق ما جعل اليأس
يغلب على مجهود الاميرال فأعد العدة لترك المخيم والعود الى
البواخر ، يغمره القلق والخوف من المثل امام السلطان دون
ان يقطف ثمرة صبره وثباته •

وكاد القدر القاسي يلامس باصابعه سلامة فخر الدين ،
الذي استعاد الامل في الحرية التي يثور حبها في نفسه القوية
المتيقظة ، فاستيقظت في اعماقه الشجاعة من جديد ، معيدة اليه
صفاء فكره ، ونباهة عقله •

لقد كان ، في الحقيقة ، مغتم الفؤاد لفقده اعز رفاق
جهاده ، اكثر من اضطرابه للموت الوحشي الذي كان يتهدهده •

وحينئذ ، خالجه شعور جديد ارقه ، فقد خاف ان يؤدي
اليأس ببعض جنوده الى الغدر به وخيائته ، وبات شديد الحذر
على نفسه واخذ يغذي في نفوس مرافقيه دوما روح الثقة به ،
ويمنيهم بحلاوة العيش بعد تحقيق المشروع الذي يضمن سلامته،
مظهرا لهم ، كالماضي ، خصال فخر الدين الكبير •
ولكن الثروة المجرمة ، حكمت عليه اخيرا بالفناء والتدمير،
فقد حملت افرادا من الجماعة التي رافقته على خيائته في دياجير
عزلته (١) •

قبل ابصار جيش العدو بليلة واحدة ، غلبه نعاس طويل ،
هاديء ، فاغتنم كاتم اسراره فرصة استغراقه في النوم ، وادلى
احد الشبان بحبل ، مكلفا اياه اطلاق الاميرال على مكان المغارة
المجهولة التي يختبئ فيها الامير •

فقد كان بين مرافقي المعني ، خائنات نكثا بالعهد ، في
حين ظل الآخرون امناء يحافظون على البطولة الكاملة ، والاخلاص
التام •

وما اكثر ما يؤدي ترجرج القلب البشري الى حضيض
النذالة ويفقد المشاعر الانسانية •

وما اكبر العظة التي يعمق جذورها ، هذا المثل : « على
المرء ان يكون حكيما في الاحتراز من اشد المقربين اليه ، فالعظماء
يجب ان يرهبوا العاقبة ، ويعرفوا اليقظة اذا ارغمتهم الحاجة يوما
على الافضاء بسر » •

١ - يعني ان الثروة التي كان المعني الكبير يستخدمها للقضاء على اعدائه ، هي
التي اغرت اصدقاءه بالغدر به •

وما اكثر الموظفين الذين يتظاهرون بعظمة التضحية بأرواحهم من اجل رؤسائهم ، ثم تبرز في اعماقهم طبيعة النذالة والحقارة ، اذا لم يكن الخوف من العقاب رادعا لقلوبهم الآثمة .
وصل الخائن الى خيمة الاميرال لينشر الفرحة في المعسكر كله ، غير حافل بحقارة العمل الذي أتاها . واسرع الاميرال في الاستيضاح عن الطريق التي عليه ان يسلكها الى فخر الدين .
ولكن حرصه وحذره الهماه التريث .

فكر القائد التركي في الامر مليا ، لان الاموال التي رجا ان يحصل عليها من الامير الدرزي استولت على مشاعره وخشي اذا هو لجأ الى العنف ان يقضي على حياة المعني الكبير فتقلت من يده الثروة المنتظرة، لذلك بعث برسول اليه، وأقسم له بعمامته (١) انه لن يعتدي عليه ولا على املاكه ، اذا شاء ان يسلم نفسه .

المث بالامير فخر الدين رجفة هائلة ، على اثر ذلك الانذار المحزن ، ولكنه قبل بشروط العدو ، بعد ان امل في كسب قلب السلطان والتأثير فيه ، بيد انه أضاف اليها شروطا ثلاثة بعث بها مع الرسول القادم الذي كان على علم بنيات جعفر الخفية .
الشرط الاول ، ان يعطى الحرية لمقابلة السلطان ، وان يستقبل بالرايات المنشورة ، وعزف الموسيقى ، وان تكون برفقته حاشيته الخاصة التي تبلغ ثلاثمائة رجل .
والشرط الثاني ان يسمح له بنقل مليون - سيكون (٢) - ذهبا ويأخذ اربعة عشر جملا تحمل بعض متاعه .

١ - ان هذا القسم عند التركي ، هو الخلف ما يعرف من الايمان .

٢ - نوع من العملة .

والشرط الثالث ، ان لا يساق كعبد خاضع لنصر الغالب ،
وان يستقبل كما يستقبل الباشوات •
ولم يتردد الاميرال في قبول الشروط ، لانه يشعر في نفسه
بسعادة لا توصف وهو يقبض على عدو كان يئس من اخضاعه •
وهكذا رضي الاميرال بكل ما تحمل تلك الشروط ، فخرج
فخر الدين من مغارته ، راحلا الى استانة ، يرافقه ولداه •

ما كاد مراد يتلقى النبأ ، حتى تبدلت في نفسه مشاعر
الغيظ من الامير ، وجذبتة المناقب الرفيعة المشهورة التي تميز
بها المعني فاعطاه حقه من التقدير والاحترام ، وتلهب شوقاً ليرى
ذاك الامير الدرزي العظيم ، ممنيا نفسه بالاستعانة بارشاداته
ونصائحه •

قال « بسبيبي » :

ما كاد نبأ وصول فخر الدين يبلغ مسمع السلطان ،
حتى غمرته فرحة عارمة ، ورغبة ملحة في ان يرى ذلك العظيم
الذي طبقت شهرته الآفاق ، فاعجب الناس بفضائله ، واثرواته
الطائلة ، فخرج بنفسه يجري مع احد الباشوات ، ليراه بعيدا على
انفراد •

وما كاد السلطان يلتقي فخر الدين في الريف ، حتى
استوضحه عن شخصيته ، وعن الدوافع التي حملته الى تركية ،
وطلب منه معرفة اعدائه ، والسبب الذي دفعهم الى طلبه •
وتظاهر الامير بانه لم يعرف السلطان ، حاسبا اياه احد
موظفي البلاط ، فسرده قصته بكلمات موجزة ، واطلمه على
اسماء الذين سببوا اضطهاده ، وانتهى بحكاية مؤثرة عن المعاملة

التي لقيها ، بحجة تنفيذ رغبات الباب العالي .
وقد استطاع بفصاحته ، وجرأته ان يؤثر في السلطان ابلغ
التأثير ، آخذاً منه وعدا بأن يخدمه بكل ما تملك يداه ، وبكل
ما تسمح به سلطته .

وهكذا اضر السلطان لفخر الدين التقدير والاحترام ،
بعد ان وجد فيه ، الشخصية القوية الجديرة بالتقدير ، وما
كاد يعود الى استانة حتى اعد عرشاً رائعاً بجانب عرشه ، ليستقبل
فيه الاسير الكبير ، ثم اصدر الاوامر المشددة ، بان تحسن معاملته
ويقابل بما يليق بالعظام من الرجال .
وقد سبقت قدوم فخر الدين ثمانية صناديق من الذهب ،
قدمت هدية الى السلطان .

وكان دخوله البلاط بعد ذلك كما توقع ، اذ عزفت عند
مروره الموسيقى ، ونشرت الاعلام ، واحاط به الحراس ،
ومشت خلفه الحاشية ، وهو يتقدم الجميع بين جدارين من جنود
الامبراطورية نحو ديوان السلطان الذي اجلسه الى جانبه على
العرش الثاني الذي اقيم خصوصاً له .

تحدث فخر الدين الى السلطان ، طويلاً ، فاعجب هذا به ،
ومنحه التبرئة من كل ما نسب اليه ، واعداد اياه بالوفاء له ،
والعمل على ارضائه ، والاستئناس برأيه كلما الم بالامبراطورية
امر مهم .

لقد اعجب هذا السلطان الكبير بفخر الدين لدرجة انه لم
يجد غضاضة في ان يصرح له ، بانه عقد النية على ان يتخذه صديقاً،
وأباً ووزيراً اميناً .

كان فخر الدين قوي النفوذ ، مهابا ، ولذلك استطاع ان ينال بهداياه ، هذا الاستقبال الخاص •

وكان يعرف في مثل تلك المناسبات ، كيف يجعل الناس يحسنون معاملته ، ويعطونه فوق ما يستحق ، وفي مقدوره كذلك ان يحدد الوقت الذي يظهر فيه تفوقه واستعلاءه ، وجدارته •

ولقد استفاد من تلك الترتيبات التي خصصت له ليزيد من تقدير السلطان لمناقبه ، فاستأثر بتفكيره ، وسيطر على آرائه ، وبدأ المنتفذ الاقوى في البلاط ، لا تتم قضية الا برضاه ، ولا يسير عمل الا بمشيئته ، بعد ان كان المستشارون فيما مضى هم الموجهون لادارة الدولة •

ولا يخفى ان من يحصل على مثل هذه الحظوة ، ويتمتع بمثل تلك المواهب ، لا بد له من السقوط الحتمي ، بسبب مكاييد الحساد •

فصاحب الحظوة ، دوما ، عرضة لمؤامرات الناس اجمعين ، ومن الضرر الفادح ، والخطأ الكبير ، ان يمنح الملوك احد المرؤوسين عطفهم ومحبتهم ، ويشرفونه ب صداقتهم وثقتهم ، لان ذلك يعود بالضرر على صاحب الحظوة نفسه •

وهكذا ، فان بطانة السلطان حقدت على الأمير ، وتربصت به الدوائر ، خشية ان يتخذ من دالته على الملك ، سبيلا الى الانتقام منها ، وخصوصا الاشخاص الذين اساؤوا الى فخر الدين من قبل ودرسوا عليه • فقد امسى هؤلاء في خوف شديد مقيم ، وذعر لا يعرف الهدوء •

كان خصوم فخر الدين جميعا ، مقتنعين بأنه لن ينسى

اساءتهم وأعمالهم السابقة ، لذلك اخذ كل منهم يرتجف من الخوف ، ويحسب لكل بادرة الف حساب .

اما كبار الموظفين فقد وجدوا ان سلامتهم تتوقف على الخلاص من الامير الكبير ، وان نجاتهم لا تتم الا بتدميره ، ولكن هذه الخطة ليس تحقيقها بالامر السهل ، وهي التي تعترضها العقبات وتكمن في تنفيذها الاخطار . ولكن تلك العقبات كانت في الحقيقة تزيد اولئك الخصوم تعصبا وعنادا في عداوتهم . والاذال الذين لا يقيمون للكرامة اعتبارا هل يعدمون يوما الوسيلة التي يتمكنون بها من تنفيذ ما توحى به حقارتهم ؟

هذا الجيش من الحاسدين الوضيعين ، عرف اخيرا الطريق التي توصله الى بلوغ هدفه وهي الاستعانة بالمفتي جاعلا منه خادما لمصالحه وستارا لاعماله . وسرعان ما جاء هذا المفتي الى السلطان مراد على رأس الجيش الحاسد الحاقدا ، وراح يوغر صدره ويتهم فخر الدين بانه صديق المسيحيين ، والكافر بدين الاسلام .

استشاط السلطان غيظا ، واخذته سورة من الحقد ، فثار كالاسد الغضوب ، وراح يضرب بقدميه مهددا متوعدا . ووجد الحساد الفرصة سانحة فاستثمروا ثورة مراد ، وتمادوا في التحريض واثارة الحفيظة ، وجددوا الشكاوى التي اقنتع الملك اخيرا بها وصدقها ، ولا سيما بعد ان عززها المفتي بالادلة التي رآها تؤثر في مراد مما جعل الغضب يستفحل فيه ، واقسم على انه لا بد قاتل فخر الدين الكبير . واقتيد الامير الى الديوان ، ولدى وصوله اصدر السلطان

فورا حكمه المشؤوم بقتله وقتل اولاده واحفاده دون ان يسمح
للمتهم بأي دفاع .

وما كاد الامير يحصل من قاضيه المتوحش ، على السماح له
بلحظة يطلب فيها الرحمة من ربه ، حتى دار حوله اخرسان
واستدار هو الى الشرق ، نكاية بالاتراك الذين يستديرون الى
القبلة ، ثم رسم شارة الصليب (١) .

ولدى هذه البادرة ، غلى مرجل الغضب في صدر مراد ،
فصرح ونار الحنق تتأكله (٢) « اسرعوا في شئ هذا الخنزير ،
واقتلوا اولاده واحفاده ، حتى لايبقى من سلالة الكافر احد » (٣)
وتفذت الاوامر العلية باقصى السرعة ، ثم حمل رأسه على
رأس رمح ، عبرة للشعب الذي هرع الى المشاهدة . ولاحت هناك
عبارة تقول : « هذا هو رأس الامير فخر الدين الكافر ، العاصي » .

١ - حادثة كل مايقال فيها ، انها اسطورة مفتعلة . وفخرالدين الذي عرف
كيف يقضي على التعصب الديني ، لايمكنه ان يثير تلك النعرة الطائفية قبل وفاته ،
لان في هذا العمل ايقاظا ذميما للتعصب المفرق واثارة للتفرقة الطائفية . وهذا ما
كان الامير الكبير العظيم بعيدا عنه .

٢ - هنا نظهر بوضوح نية الكاتب الذي يحاول ان يثير المسيحيين على الاتراك ،
فلم يجد الفصل من الضرب على وتر الطائفية الذي كان له في ذلك الزمن
الصدى البعيد . والتعصب الطائفي المكث ، تاباه نفوس الكرام ويرفع عنسه
المخلصون ، لان بلادنا هي مهد السلام وموطن الاخوة التي يبشر بها كل ذي رأي
سليم .

والدروز ، في ماضيهم وحاضرهم ، يعرفون ان الدين دعوة الى الوطنية ،
ويؤمنون به مطهرا للنفوس ، يفصل القلوب من الادران ، ويبعد الشواذ عن العقول ،
ويؤدي الى الوحدة البشرية التي هي من صلب جميع الاديان على السواء .

٣ - لم ينتج من الموت ، من ابناء فخر الدين سوى حسين الذي احبه السلطان
وخصه بعطفه . اما اولاده منصور وحيدر وبال ، فقد قتلوا معه .

حال الدروز منذ سقوط فخر الدين الى حكم الامير الذي يرأسهم الان

بعد التخريب الذي احدثه طمع الاتراك وغضبهم ، فسي
وطن الدروز ... وبعد ان ادخلوا الاسنة في صدورهم ، هادمين
ابنتهم الجميلة ، معتدين على مدنهم ، مقتحمين قلاعهم
ومزارعهم •

بعد كل ذلك كان من المفروض ان يظهر على رأسهم فخر
الدين جديد يتحلى بالجرأة كي يعيد عزهم ، ويجدد نشاطهم ،
فينهض بهم من هذه الوهدة التي تردوا فيها ، معوضا عن
خسرائهم ، دافعا الى البعيد اولئك الذين اضطهدهم الاتراك ،
سائرا بهم ، كسلفه ، الى حدود النصر ، مثبتا حرية وطنهم ،
مجددا الرعب الذي تفجره اسلحتهم •

هذا ما كان ينتظر من ملحم الاول (١) ، الامير الذي بقي
من اسرة معن •

كان ملحم ابن الامير يونس الذي عرفنا قصة مقتله وهو
يقاوم الاتراك ، وابن اخي فخر الدين ، ولكن دم الرجال لا يخلق
دوما ابطالا ، كما ان السواقى التي تنحدر من النهر الصافي
النقي ، مارة برمال من الذهب ، غالبا ما تفسد في مجار وسخة ،
موحلة •

وكان ملحم يرى ارثه فريسة للاتراك دون ان يفكر يوما
في استرجاعه • وكان المسيحيون قد التجأوا الى الجبال هاربين
من الاضطهاد ، وكان حلفاء الدروز قد انسحبوا ، ولكن الجميع

٢ - ملحم الاول ، يعني به ملحم المعني وذلك لمنع الالتباس بينه وبين ملحم
الشهابي •

كانوا يضمنون للاتراك العداء والحقد ، ويتطلعون باعين متلهفة الى رئيس يجمعهم تحت رايته .
لم يجرؤ الامير ملحم على التظاهر بصفات الرجل الذي يرغب فيه شعبه ، فقد كان في طبيعته جبانا ، خبيثا ضعيف الامال مكتفيا بالشروط المخجلة التي تحفظ له ما خلفه الاتراك للدروز من مقاطعات .

كان له ما اراد ، فعرفته البلاد اميرا عليها ، لكن لقب الامارة على الدروز لم يكن في الحقيقة ، بالنسبة اليه ، اكثر من وهم ، فوطنه لم يزد في اتساعه على مساحة ولاية يقوم عليها حاكم بسيط .

وملحم كان يأتمر دوما بأمر البلاط العثماني حتى انه لم يكن يتورع عن اقتراح ابة وضاعة ، اذا كان في ذلك ارضاء للامبراطورة . وعرف بظلمه لشعبه والعمل على قهر المسيحيين (١)

١ - لا يخفى هنا ان المؤلف يحاول بما يكتب ارضاء بعض المسيحيين الذين عرفوا في ذلك الوقت بنظرهم ، لاكتساب محبتهم ، حتى اذا دمت الحاجة كانوا لفراسه جنودا مخلصين ، مع ان اليهود المعنية لم تعرف ظلما ، ولا تمصبا ، ولا خيانة ، والمسيحيون يومئذ كانوا شعبا وفييا لوطنه ، واخوانه ، ومباذير دينه .
ان الدول الاجنبية تحاول منذ القديم ، بحجة الدفاع عن دين ، او فئة ، التناقل بيننا للدس والوقية ، تأمينا لمصالحها . والذي حمل الكاتب على هذه الثورة عدم اقدام الامير ملحم على الحروب الدامية ، المستمرة مع العثمانيين ، فهناك رغبة ملحة لدى المؤلف في رؤية الدم يجري باستمرار على ارضنا ، نكاية بالاتراك الذين كان يمتنهم ، ويتمنى زوالهم حتى ولو ادى ذلك الى فناء الشعوب الخاضعة لحكمهم .

ومن المعلوم انه في عهد فخر الدين ، وحتى في اليهود المعنية التي عقيبت ذلك العهد ، لم يكن الحديث بالطائفية ليجري على لسان ، ومع ذلك نرى صاحب الكتاب دائم التحدث عن الطائفية والتعصب لان له من وراء هذا الحديث ماربيا

الذين هربوا من حمايته لاجئين الى مواطن الباشوات متوسلين اليهم ان يقبلوهم كلاجئين ، اما قومه الدروز ، فقد فرض عليهم توفير سبل المعيشة عن طريق قطع الطرق .
لن ندخل في تنفيذ شخصية ملحم الاول (١) ، لان حكمه كان قائما على اسس واهية ولم تعرف في عهده ثورات ، ولا فتوحات .

ان اميرا مثله ممعنا في قسوته ، متماديا في ظلمه ، مستبدا في حكمه ، لا يكف عن اعتداءاته ، لا يمكن لنفسه ان تنضح بغير البشاعة ، والحقارة ، ولا يصح لاحد ان يورخ حياته ما دام غير خلبق بالتأريخ ، والكلام عنه يزعج القراء ويسبب لهم الضيق .



خاصا ، وهو مما لا يخفى على البصير .
ويظهر ان الكاتب لا يريد ان يقتنع بكون المعنيين للجميع لا للدروز فقط .
كما يتجاهل ان الجميع كانوا متساوين في الحقوق والواجبات ، والوظائف وكسل شبيه ؟

١ - هو الامير ملحم المعني . والذي حمل المؤلف على الذم فيه ، هو توفيقه بين مصالح شعبه والعثمانيين محافظة على راحة البلاد ، وسلامها وهدوئها .
وقد اشتهر الامير ملحم ، على عكس ما يقوله المؤلف ، بالحكمة والدراية والتمقل ، فمدحه الشعراء ، وخلدوا ذكره .

اما خلو عصره من الحروب ، فدليل على الامن الذي ساد البلاد ، والالفة التي عمت قلوب الشعب ، لا على الخضوع الدليل ، المهين الذي يحاول صاحب الكتاب ان يلصقه به .

اضطر الامير ملحم مرة واحدة الى الحرب ، حين حاول مصطفى باشا ، والي الشام ، غزو لبنان فصدمه الامير ملحم ، في وادي القرن ، واشتبك معه في معركة حامية خالفه فيها النصر .

ولد الامير ملحم في دير القمر . وكان حكمه من ١٦٣٦ - ١٦٥٧ .

هذا الامير الجائر بحكمه ، هو الذي جعل الاجانب ينظرون الى الدروز على انهم من البرابرة ، بعد ان دفعهم ، هو نفسه ، بنذالته وسوء تصرفه ، وظلمه ، الى قطع الطرق والغدر ، والعنف ، واعمال الاستفزاز (١) .

لسنا نأتي بجديد اذا قلنا ، ان ارباب النفوذ في الحكومات ، يتخذون من عيوب ملوكهم سبيلا الى الثروة والجاه ، ولكن على الغالب لا يجاري انحرافات الملوك الا القلة من رجال البطانة ، اما الكثرة فترغب في اظهار الملك العاقل اشد بشاعة مما هو ، واكثر عيوباً (٢) .

والذي خلف الامير ملحم احمد المعني على امارة الدروز (٣) هو موسى علم الدين .

وكان الاثنان لا يعملان الا باشارات البلاط ، مكرسين نفسيهما لمصلحة الامبراطورية العثمانية ، كما كان سلفهما ملحم الاول .

١ - هذه الثورة على الامير ملحم التي اصاب رشاشها الدروز ايضا ، مردها الى ضعف الامتيازات الفرنسية في عهده ، فقد كان في مهادنته العثمانيين اضعاف للعلاقات الفرنسية مع لبنان الذي تريده فرنسا خاضعا لنفوذها .

٢ - وهنا ايضا ، يظهر جليا الوعظ الذي يوجهه الكاتب الى ملك فرنسا ، فيحذره من البطانة التي لا تستر عيوب الملوك ولا انحرافهم ، معبرا ، في ذلك من نقمة الشعب التي كانت تتجلى في القلوب وعلى اطراف الشفاه .

٣ - توفي الامير احمد في دبر القمر سنة ١٦٩٧ ولم يرزق بنين فانقرضت بعده سلالة الامراء المعنيين . وفي ايامه ظلم الحماديون المسيحيين كثيرا ، فدافع عنهم الامير احمد ، مسهلا دخولهم الى لبنان الجنوبي ، وجبل عامل . وقد ثار عليه اليمينيون ، وسلموا الحكم لال علم الدين سنة ١٦٩٣ ، ولكنه عاد فتقلب عليهم وانتزع الحكم من ايديهم .

ويبدو ان موسى علم الدين (١) فاق سلفيه وحشية
والصوصية ، واكبر دليل على ذلك البعثة التي اوفدها المواردة الى
لويس الرابع عشر في فرنسا تطلب منه حماية المسيحيين من
الأتراك والدروز .

لم يجرؤ الباب العالي على رفض الحماية التي طلبها المواردة
من ملك فرنسا الكبير المبجل ، الذي ناب عنه في هذا الطلب
سفيره لدى الباب العالي .

وهكذا استعاد المواردة حياة الامن والاستقرار ، وانصرف
الدروز الى زراعة الارض ، بعد ان جعلت منهم الحاجة ارباب
سناعة ، لكن روح الهمجية بقيت مهيمنة على نفوسهم حتى
مجيء ملحم الثاني الذي تمكن بنبل الدم الجاري في عروقه ،
وبموت موسى علم الدين ان يتولى امارة الدروز .

وملحم الثاني هو الذي يحكمهم اليوم ، وهو الذي يعيد
الى ذاكرتنا تلك الايام الحلوة التي خلقتها عبقرية فخر الدين
الكبير ، وحكمته .

ان الرأي السائد ، يخلط في الغالب بين المواردة والدروز

١ - في سنة ١١٦٩٣ سافر الامير موسى علم الدين مع الصدر الاعظم علي
باشا الى استانبول ، مستعيدا مكانه لدى الباب العالي ، وقد تمكن من استعادة
اقطاعات بني الدين في الشوف ، والجرد ، والفوب ، وكسروان ، وجزين .
وامره الباب العالي باستئصال بني معن ، ولكن الامير احمد المعني قدم بدروز وادي
التييم الى الشوف ورشا والي صيدا كيلا يساعد الامير موسى . فاضطر هذا الى
الفرار الى دمشق .

وفي سنة ١٧٠٩ تولى الامير يوسف اليميني علم الدين ، الشوف ، فسار اليها
مع الامراء من آل علم الدين ، ولكن الامير حيدرا الشهابي دهمهم وقتل جميع الامراء
من آل علم الدين ، ولم ينج منهم احد .
ويقال ان اميرا واحدا استطاع النجاة وهرب الى دمشق ، ولكنه سرعان
ما مات فيها ، وانقطعت اخباره .

الذين يرجع اليهم تبديد هذا الزعم (١) والذي جعل الناس يعتقدون ذلك هو تجاوز الطائفتين والتحالف المتين الذي وحدهما ايام فخر الدين . وتجدد في ايام ملحم الثاني (٢)

ولكن الموارد يختلفون كثيرا عن الدروز . اصلا ومعتقدا . وسموا بالموارنة نسبة الى القديس مارون . اما اصلهم فيوناني (٣) ان تقديرهم للاب مارون حملهم ، ايام انشقاق الكنيسة في الشرق ، على الالتفاف حوله ، في مركز اقامته لانه اشتهر باعمال التقوى . وفي السنتين الثامنة والتاسعة لحكم الامبراطور قسطنطين ، استولوا على كل البلاد التي تقع بين جبال طوروس ، ومدينة القدس ، واصبحوا سادة عدد كبير من مرتفعات لبنان .

١ - تماسك المسيحيين والدروز حمل الاجانب على عدم التفريق بينهم ، وان دل هذا على شيء ، فعلى عدم وجود اية نزعة طائفية في تلك الحقبة من التاريخ ، وانصهار الجميع في بوتقة الوطنية الصحيحة ، وسابقتهم الى الدفاع عن الوطن والسعي لعمرائته .

وجدا لو قامت المدارس اليوم ، وخصوصا الرسمية منها ، بتدريس تاريخنا القديم بعناية واجتهاد كي ننشأ الاجيال الطالعة على ما كان عليه الاسلاف من الاحسان والتحاب والتعاون في جميع المجالات ، اذا كانت الالفة توحيد القلوب ونجمع الفرقاء جميعا على حب لبنان . ولو ترفعنا نحن اليوم عن النعرة الطائفية والفرضية المتهورة والحزبية الهوجاء ، لقال عنا الاجانب ما قالوه عن اجدادنا في عهد فخر الدين .

٢ - المقصود « بملحم الثاني » الامير ملحم الشهابي . ولسنا ندري ما الذي حمل المؤلف على تجاهل الفترة الفاصلة بين حكم الامير احمد المعني والامير ملحم شهاب . وهو لم يذكر شيئا عن الامير بشير الاول ولا عن الامير حيدر شهاب الذي انزله لابنه ملحم عن الامارة سنة ١٧٣٢ .

٣ - يظهر من هذا التعريف ان المؤلف لا يعرف كثيرا عن اصل الموارنة ، فهو يجهل ان اسرا مارونية كثيرة هي من اصل عربي صريح ، وينبغي بعض الموارنة العالمين كون بعضهم يمت الى الاصل اليوناني باي سبب . ويدل سياق الحديث على ان المؤلف ينبغي من بعض ما يكتب ، تحقيق ما لا اثبات حقيقة .

وسرعان ما انضمت اليهم جماعات من الاجانب والخدم والعبيد ، فصاروا مصدر رعب للاعراب والارمن الذين حاربوهم فانتصروا عليهم ، وسموا بالعصاة لانهم كانوا يقومون بالحروب دون معرفة السلطان او طلب اذنه .

وهم الان ، منتشرون في جبال لبنان ، وفي مدن سورية ، وحتى في جزيرة قبرص . ولكن الكثرة من الموارنة يقيمون في كسروان ، وهي المنطقة التي يملكها الدروز .

وهناك اقاموا نوعا من الحكم الجمهوري متتبعين بالمناخ الطيب ، اللطيف ، والارض الخصبة الكثيرة الغلال . وهم يمارسون الطقوس الدينية باثقى معانيها .

ويقوم على الرئاسة الدينية فيهم حبر يحمل لقب « بطريك انطاكية » يضم اليه الحرس الكهنوتي ، وتحت امرته وكلاء الكنيسة الذين يحملون لقب « المطارنة » وكثير غيرهم مسن الرعايا الذين يقومون حسب ارادته ، بالادارة الزمنية . وهؤلاء الموارنة يتبعون طقوس الكنيسة القديمة ، في امور الزواج ، وتناول القربان .

وهم يعيشون في حماية امير الدروز ، وينصاعون لاوامره في الحروب . وكبيرهم يسكن في كسروان قرب بيروت ، بصفته احد ولاة الامير ، واحد قواده .

فمن الطبيعي اذا ان يجعل منهم التحالف مع الدروز قوة هائلة ، لانهم يملكون وحدهم جيشا لا يقل عدده عن اربعين الف مقاتل ، مدربين احسن تدريب .
لائحة لبلدان الدروز

تقع امارة الدروز في المنطقة الكائنة بين السلسلتين

الشرقية والغربية •

وهذه الجبال التي تعطي في استدراتها شكل نضوة الحصان (١) يفصلها عن البحر ، سهل خصب تسقيه انهار عدة فتزيد في خصبه •

وهناك واد طويل يفصل بين السلسلتين الشرقية والغربية ، كان يسميه الاقدمون « سورية المجوفة » وقد لفتهم ، واستحوذ على اهتمامهم • وهذا الوادي كان يفصله عن سورية ، في القديم ، حاجز زالت اثاره ومعالمه •

ونسمي ايضا لبنان منطقة الجبال الغربية التي تمتد من كسروان الى حدود صيدا •

اما « لتي لبيان » فهو القسم الشرقي من لبنان ، ولا يؤلف مع لبنان الا سلسلة من الجبال تمتد من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الشمال ، وتعطي شكل نضوة الحصان كما اسلفنا •

اذن ، فان مساحة هذه الامارة لا تتوقف عند حدود المنطقة التي تحيط بها الجبال ، وانما تمتد الى ابعد من ذلك ، فحدود امارة الدروز هي الجليل والجزيرة العربية من الجنوب وصقلية في الشمال ، وسورية العليا من الشرق ، والبحر وجزيرة قبرص من الغرب •

واذا كان هناك بقعة في الارض سخت عليها الطبيعة ، ومنحتها البركة ، فهي ولا شك بلاد الدروز •

يكفيهم ان يكونوا في مأمن من الغارات المفاجئة ، يحمون

١ - ان هذا التشبيه خاطئ ، اذ ان جبال لبنان ليس لها هذا الشكل •

حدودهم ، ويتحدون اي مهاجم تسول له نفسه مهاجمتهم •
ولا يمكن الدخول الى وطن الدروز ، الا عن طريق مضائق
لا يستطيع عدد يفوق ستة الاشخاص ان يجتازها دفعة واحدة •
وهذه المضائق ، اما محوطة بمهاو رهبة ، او محددة بمغاور
تتسع لعدد كبير من الجنود ، تكفيهم الحجارة سلاحا يفتكون
بها ، باشد اعدائهم جسارة وبأسا •
من هنا يمكننا ان ندرك سهولة نقل القوات والمعدات
والمدافع التي تحتاج اليها جيوشهم ، كما ان طبيعة البلاد تجعل
الاستيلاء على مدد الاعداء واسلحتهم امرا ليس بالعسير •
والمنفذ البحري كذلك ، عسير ، يصعب دخوله . فمرفأ
بيروت ، الذي تحميه قلعة هائلة ، تسيطر على البحر سيطرة
تامة ، هو المكان الوحيد الذي يمكن النزول فيه (١) •
ومن هذا المرفأ تنطلق تجارة الدروز ، فهو مركز الاستيراد
والاصدار وقد اقتضى انشاؤه نفقات فاحشة ، وكلف مجهودا
جبارا ، لكنه والحق يقال من احسن الثغور ، واكثرها امانا •
ان مدينة بيروت التي انتقلت الى ايدي العثمانيين مع

١ - يدرك القارئ ، من هذا الوصف لموقع لبنان ومناعته ان الرغبة في غزو
هذا البلد ، من جديد ، ظلت مستحكمة في الفرنسيين حتى بعد اندحار
الصليبيين ، ذلك لانهم يعلمون ان اسلافهم تمتعوا بحياة ناعمة في جوار الدروز ،
ويثبت وجود هذه الرغبة اهتمام المؤلف بالناحية الحربية وتقدير قوة الدولة
الدروزية الحربية ، وهو ينبغي من هذا الوصف تمكين الفرنسيين من تجهيز القوة
العسكرية التي يجب توفيرها اذا ما ارادت فرنسا القيام بالغزوة .

مدينة سيدا ، كانت تحت حكم الامير فخر الدين منذ عشرين سنة ، فالابنية الجميلة ، والحدائق الغناء التي خربها الجنود العثمانيون ، اعادها الامير ملحم الثاني . انها تشهد اليوم بعظمة هذا الامير ومقامه الكبير .

وعلى بعد سبع عقد من بيروت تقوم دير القمر : المدينة التي اتخذها الامير مركزا لاقامته ، وهي تقع في منطقة الشوف . . . الى الشمال الشرقي من ولاية صيدا .

وهذه المنطقة هي اجمل مقاطعات الدروز . واشدها اعتبارا ، وتشتهر في سورية بجودة حريرها ونعومتها .

نجد فيها تقريبا كل ما نجده في منطقة كسروان . ولكسن خمرها اقل جودة وقمحتها نادر ، اما القطن الذي تنتجه فجيد . اما المناطق الاخرى فهي مناطق : العجرد ، والمتن ، وشحار الغرب ، ومرجعيون ، ووادي التيم ، الذي ينبع فيه نهر الاردن : الحد الفاصل لبلاد الدروز من ناحية الشرق ، وبدء المنطقة التي تضم مرج الخيام وحوران اللذين يديرهما حكام دروز يخضعون للامير ، ويعودون اليه في جميع الشؤون .

ونهر بيروت والليطاني ، وغيرهما من الانهار التي تجري في وطن الدروز ، تطوف عادة في بعض فصول السنة ، وهذا الطوفان لا ينتج عنه اي ضرر ، بل على العكس ، فانه يزيد الاودية والحقول خصبا وعطاء ، لان الطين الذي تتركه الماء على الضفاف ، تغني الارض بالمواد الضرورية .

شق قنال الى الفرات الذي لا يبعد عن بلاد الدروز سوى خمس وهذه الانهار صالحة للملاحة (١) ، وليس من الصعب

١ - هذا خطأ ومخالف للواقع ، فليس في لبنان انهار تصلح للملاحة .

وعشرين عقدة (١) •

لقد عقد الدروز مع الجزيرة العربية المعاهدات ، وقاموا بالاتصال التجاري ، فسلكوا اليها طرقا بسيطة احدثتها اقدامهم وحوافر خيولهم فربطوا بعض المدن والقرى والمزارع ببعض حتى حدود الجزيرة المذكورة •

يتألف لبنان من اربعة اقسام من الجبال يرتفع الواحد منها فوق الآخر ، فالاول خصب غني بالحبوب والفواكه •
والثاني احدثته عناية الاهلين ، فجعلت الحياة والخضرة فيه ، بعد ان كان يملأه الحصى ، ويغمره الشوك •

والثالث ، وان كان اعلى من غيره ، فهو جميل ، غنسي بالبساتين والكروم ، تغطيه اشجار خضر بديعة ، جعلت الاقدمين يحسبونه الجنة المعهودة للجنس البشري ، اذ يقوم فيه ربيع دائم ، مستمر •

وفي قمة الرابع ، نرى الارز الخالد الذي تحدث عنه الكتب السماوية ، ويقطن اسفل هذا الجبل ومنحدراته الموارد (٢) •

١ - اين نجد تلك السهولة في شق تلك القنال ؟ .. ان المؤلف لم يزر بلدنا ، ولذلك فهو يخطئ كثيرا في معلوماته الجغرافية .

٢ - وفي وصف الكاتب لجبال لبنان خطأ ايضا ، فالارز لا يقتصر وجوده على قمة واحدة ، فهناك ثلاث غابات ينمو فيها ارز لبنان المشهور غير غابة الشمال ، وهي غابة عين زحلنا وغابة الباروك وغابة معاصر الشوف . وفي هذه الغابات اشجار اكثر ضخامة من غابة الشمال ، وموقع هذه الغابات ومناظرها اجمل من الغابة الشمالية ، فهي تقوم في امكنة مظلة على البحر ، ولا تحيط بها سلسلة من الجبال تجعل رؤيتها منعدمة من بعيد ، كغابة الشمال التي شهرتها العناية لا الموقع الطبيعي ، فاذا توافرت للغابات الثلاث العناية اللازمة فاق عدد زائريها عدد زائري لك ، لقصر الطريق الى غابات الشوف .

قال نانس دنديني في تأملاته عن لبنان ، مشيراً الى الجبل الرابع : « لقد جمع الموارنة الحجارة من هنا وهناك ، ليقيموا منها جدراناً عالية تخفف من حدة انحدار الجبل الاجرد ، القاحل الذي جعلوا منه مزارع جميلة ، خصبة ، دائمة الاخضرار ، يمكن حرثها بسهولة . فكثر اشجار العنب وغيرها وفاضت غلال الحبوب ، وامتلات الارض بانواع كثيرة من الطيور . ولكن شتاء هذا الجبل على الرغم من كل ذلك ، قاس ، يكثُر فيه الجليد .

اما الوادي الذي يفصل جبال لبنان عن « ائتبي لبنان » فيعد اخصب منطقة في نصفي الكرة المعروفين ، بعد أن يسقيه نهر يقطعه من طرفه الاول الى طرفه الاخر (١)

اما القسم المقابل تقريباً لهذا الوادي ، اعني السهل الفسيح الذي يبدأ من طرف لبنان ممتداً من اليمين الى الشمال ومنتها الى البحر فتقطعه انهار عدة (٢) ، تجعل المراعي كثيرة فسيحة ، وهو في كل نواحيه مأهول بالسكان ، وكل أرضه يستغلها الموطنون .

اما مناخه فمعتدل ، ولا تقسو عليه الفصول ولا يعرف الجليد ، وان يكن السكان يشكون القر في بعض الاحيان .

تعطي أرض هذا السهل موسماً مزدوجاً اي مرتين في السنة ، وفيه كثير من الاشجار العطرية ، فاشجار الحامض والبرتقال وافرة جداً ، حتى تكاد تحاذي جميع طرقه ، وكذلك اشجار الدراقن

- ١ - هو يعني سهل البقاع اما النهر فهو نهر الليطاني .
 - ٢ - يقصد بهذا السهل ، الساحل الخصب القائم الى جانب الشاطئ .
- واهم الانهار التي تسقي هذا السهل الساحلي هي : نهر ابراهيم - نهر الكلب - نهر بيروت - نهر الدامور - نهر الباروك او الاولبي .

والتنفاح والاجاص فانها كثيرة ايضا وغلتها تفيض عن استهلاك
الموطنين .

واشجار اللوز والزيتون كثيرة العدد تعطي افضل انواع
الزيوت اما شجرة القطن فتنتج ذلك الصوع من قطن قبرص
المعروف في اوروبة بقطن القدس . وهي شجرة شائعة واقصرة
الغلال .

ولكن شجرة التوت تتبوا المركز الاول بفائدتها ، لان الحرير
هو اكبر ثروة للبلاد .

اما الغابات فتغطي مساحة كبيرة من الارض ، وتنتج انواعا
من الاخشاب تستعمل في شتى الصناعات ، كصناعة المقاعد
والسفن وغيرها .

والكرمة ممتازة ، وخمرها لذيذ يطلبه الاجانب بشغف ،
فحبة العنب اكبر من ثمرة الخوخ وتمتاز بحلاوة شديدة ، لذلك
يسعى اليهود دوما الى تذوقها ، ويعملون بجهد لافتتاح ارض
الميعاد ، بعد ان وجدوا هذه الثمار اللذيذة في ايدي جواسيس
يشوع .

القمح متوافر ايضا ، وفائض عن الحاجة ، فبلاد الدروز
يمكنها ان توفر لغيرها من القمح مقادير كبيرة ، ففي الماضي
كان ابناء فلورنسة يتخذون مؤوتهم من قمح هذه البلاد .
المن ايضا متوافر ، ويفوق بجودته جميع المن المعروف في
اقاليم اخرى .

وملح البارود موجود بكثرة ، فمهما اخذ منه لا يخشى
عليه ان ينفد ولكن يجب ان يميز بينه وبين نوع من الرماد
موجود في ضواحي صيدا ، تصدر منه مقادير كبيرة الى
مرسيلية ، وبعض الموانئ البحرية .
ينتج وطن الدروز كذلك نوعا من النباتات يحرقه المزارعون

بعد جمعه ، فيعطي رمادا يصنع منه البلور •
وهذه النباتات تستحق الاهتمام والدرس •
ثم هناك عشب اليرباس المشهور الذي ينبت ايضا فسي
لبنان ، فيلتصع ليلا ناشرا ضوءا اشبه بضوء شمعة مشتعلة •
وهذا الضياء لا يلبث ان يتبدد عند مطلع الصباح •
والرأي العامي السائد عند الاهلين ، ان هذا العشب مختص •
باستحالة المعادن •

اما النبتة المسماة الروباس فلا تقل شهرة عن اليرباس ،
ويتخذ منها الناس شرابا ممتازا لمعالجة امراض الكبد . وضعف
المعدة •

وحرير هذا البلد هو اجود انواع الحرير المعروف فسي
الشرق وينتج منه لبنان مقدار ٧٠٠ الف ليبرة •
والشمع والعسل يكثران كذلك ، فالنحلة التي وجدت
نفسها في ذلك المناخ الملائم لطبيعتها ، تتكاثر وتنمو باطراد ،
وحتى في الاحراج نرى خلايا نحل نشيطة ، عاملة ، كما لو كانت
تحت رعاية المربين •

اما الارض فيظهر انها تحوي في جوفها مناجم غنية • فسي
منحدرات بعض الجبال نجد نوعا من الحجارة الالامعة تتوهج
كالمشاعل ، وهي دون شك ، دليل على وجود الحديد الذي نسميه
في فرنسا « مار كاسيت » •

وتبدو اسنان الجداء فضية اللون ، كما ان الطيور موجودة
بكثرة ، ويوازي حجم الحجل حجم الدجاجة عندنا ، والطيور هي من
الاغذية الفاخرة اللذيذة •

ويوجد في لبنان من جميع انواع الطيور المعروفة في اوروبة،
ولكن تفوقها جودة وعددا •

وهناك النسر الذي يبني اعشاشه في الاعالي ، فيبيض

• ويتكاثر •

كما ان الحمام واليمام والترغل تتكاثر في البراري والغابات، ولحمها لذيذ • اما الحصان فضاير ، دقيق ، ويظهر انه من النوع العربي الاصيل ، والعناية بتربيته تدل على مدى الاهتمام به • فالدرزي ليس له عمل غير خدمة جواده ، لانه نوع يستعمل للتجارة •

وهناك الجمال المخصصة لحمل الاثقال ، لان طبيعة البلاد تتطلب القوة والدراية ، والجمال للنقل افضل من الجواد • ويستعاض عن الحصان بالحمار في الاماكن الوعرة لنقل البضائع والحاجات •

اما الحراثة فهي من خصائص الثور ، يستعمله الدرزي في حراثة الكرمة ، وفي الارض القاسية التي يتطلب جر المحراث فيها قوة وشدة •

والغنم هناك هو اكبر من غنم قبرص والسواحل الغربية ، ولكن لحمه اقل جودة من اللحم الذي تأكله في اوروبة • اما المعزى فلا تعطي تناجا مهما غير الجداء التي يتميز لحمها بطعمه اللذيذ •

الامير ملحم الثاني (١)

اذا عرف الانسان كيف يسعد شعبه ، استطاع ان يسيطر على قلوب رعاياه ، وان يكون محبوبا من حلفائه ، بقدر ما يبت الخوف في نفوس اعدائه ، ويكون بذلك قد بلغ اقصى درجات الحكمة ، وارفع درجات الدهاء .

وتلك الصفات تهيء للحاكم الاحترام الشديد، وتثبت عظمته وتمكنه من الحكم مدة اطول ، مؤمنة له شيخوخة هائلة تنأى به عن تأنيب الضمير القاسي وخوف العقاب في اخراه ، وتبعده عن العذاب النفسي الذي يلزم المرء اذا لم يقم بواجبه نحو المهمة التي يضطلع بها .

تلك الصفات تجعل الاجيال المقبلة تردد اسمه ويصبح عنوان الاحترام والتقدير ، لا باعثا على الكراهية والتحقير .
ان ملحما الثاني قد مثل كل هذه الصفات التي اذا فقد الحاكم احداها عرض موقفه للخطر ، وشعبه للضرر ، وملا ايامه مرارة وحسرات .

ناهزت سن هذا الامير الستين . وكان نير الفكر ، قوي الحجة ، ذا موهبة ممتازة ، توجه الحكمة احاديثه ويسير الاعتدال مقاصده ونياته ، سمحا كريم الخصال ، حلو المقابلة ، حسن التصرف .

وهو مع ادمانه الخمر ، والعيش على نمط الاوربيين ، صبور ، بعيد عن كل مغالاة او اعتداء .

١ - كان الامير ملحم الشهابي متدينا ورعا، احسن معاملة شعبه، محافظا على العادات المعروفة التي اتخذها كالقوانين، وقد اشتهر ببعده عن التعصب الديني . دخلت شوكة صبير في يده، ففرض على اثرها مرضا اضطره الى ترك الحكم . انصرف في اخر ايامه الى دراسة الفقه، ومعايشة العلماء، ولف كتب في التسريع الاسلامي . مات سنة ١٧٦١ ، وقد استمر حكمه من سنة ١٧٣٢ الى سنة ١٧٥٤ .

بلاطه مهيب ، محبوب ، وهو مؤلف من عظماء البلاد ،
واشهر اشرافها ، اما حرسه فيبلغ عدده ستة الاف رجل •
من الصعب معرفة الدين الذي كان يدين به ، فهو يؤمن بسنة
الطبيعة ، ولا يظهر أي دليل على ايمانه بدين خاص •
وهو وان كان متزوجا بنساء عدة لا يمكن القول انه يتخذ
الاسلام ديناً ، لاننا لا نرى خلفه اماما ، ولا خطيبا ، ولا درویشا ،
بل على العكس ، فقد كان على الأرجح يميل الى المسيحية ، لفرط
تقديره لشريعة المسيح واحترام سننه ، وتردده على معابد المسيحيين
الذين كان يستشيرهم في قضاياهم ، واضعا فيهم ثقة شديدة •
وعلى ما يبدو فان ملجأه كان يؤمن بمذهب خاص ، يحترمه
الشرقيون كثيرا ، وهذا المذهب يؤمن بوحدانية الله ، وبثالثوث
منبثق عن وحدته رافضا كل ما يخالف العقل ، حاسبا ما تبقى اخطاء
لا تعتقر •

ان متبعي هذا المذهب ، يميلون الى الانس ، والبشاشة ،
والعطف ، واللين ، ويؤمنون بان محبة الجار هي من محبة الله •
على نحو هذه الخصال كانت سيرة ملحم الثاني •
وعدا ذلك ، فان فيه جميع الفضائل ، انه يؤمن بان هناك
حياة ثانية ، وان الحكام يجب ان يحسبوا حساب الله في كل
ما يقومون به من اعمال ، ويصدرون من احكام •
وتقدر في هذا الامير حسن اختياره لمستشاريه ، والعناية
التامة بترقية ذوي الاستحقاق •

وقصره مفتوح بوجه موظفيه جميعا • وفيه يقاضي الشعب
بنفسه ، او بالاعتماد على عدد قليل من الافراد المختارين الذين
يحكمون الناس باسمه دون مقابل •
ولكل موظف الحق في مقابلة الامير الذي كان يحفظ لنفسه
سجلا خاصا ، جريا على عادة فخرالدين وغيره من الامراء العظام ،

لا يدون فيه فقط كل ما ينمو وينبت في بلاده ، وانما يسجل فيه
ايضا المزايا البارزة في كل الرجال البارزين •
ان النواحي التي اتخذها الامير واجبا ، عليه ممارستها
للمحافظة على عظمته ، هي :

مكافأة الفضيلة ، ومعاقبة الرذيلة ، واصدار الاحكام المشبعة
بالدرس والتمحيص لتحاشي الوقوع في الظلم ، واعطاء الفرصة
لاستقبال الغني والمحتاج على السواء ، والاضغاء التام الى شكاوى
الناس جميعهم بعطف واهتمام ، واصدار احكام عادلة ، والبحث
عن الكفاية وتنميتها ، واختيار الخدم الصالحين ، وابعاد من لمس
فيهم التملق والرثاء •

يقدر مدخوله ، حسب عملتنا ، بستة وثلاثين مليوناً • • وهذا
ما يجعل دولته تماثل مملكتنا بالغنى ، بالنسبة للمصاريف القليلة
التي عليه انفاقها في تصريف شؤونه •

مميزات الشعب الدرزي

الدروز قوم طيبو السريرة ، نبرو الفكر ، ذوو مشاعر محبة ،
ولهم قامات كبيرة • وهم يتمتعون بقوة غربية ، وخفة فائقة •
صبورون ، نشيطون ، مستقيمون ، امناء ، انسانيون ، يتمسكون
بمثلهم حتى حدود الخرافة •

وفي الوقت ذاته هم ثابتون في احقادهم ، لا يخلفون وعدا ،
ولا يغدرون ، ويقابلون اخلاص الناس لهم باخلاص مماثل •
ان اهانة درزي واحد ، تعتبر اهانة للوطن وللشعب بأسره ،
وهذا الشعور الجماعي يبعد عنهم شبح الحرب مع جيرانهم ،
ويحفظ حياتهم في مستوى من الاحترام مرتفع •
والدروز ، كذلك يستأوون من توجيه الاهانة الى الاجانب

الذين يعيشون في كنفهم ، معتبرين اهانة هؤلاء الاجانب صفقة موجهة الى الدروز شخصيا ، ومع ذلك لا يرضون لانفسهم ان يكونوا معتدين . مع العلم ان اقل تحقير ينالهم يدفعهم الى غصبة رهيبة ، فاجعة .

لم يستعمل الدروز الصكوك الخطية في المعاهدات ، كي يأمنوا غدر اعدائهم ، وخيانتهم ، ونكوثهم بالعهد ، مع انهم لاقوا كثيرا من الكذب والخداع في كثير من المرات . وهم لا يلجأون الى مثل تلك الاساليب الخطية ، لانهم يعتبرونها غير خليقة بالاشراف من الناس ، فهي تضايقهم ، وتبدو لهم مقية ، محترقة (١) .

والدروز شجعان بوسائل ، ماهرون في استعمال الاسلحة التي يتمرنون عليها ، منذ مطلع شبابهم المبكر ، وهم محاربون ، بارعون ، يهونون الصيد ، لاقتناعهم بان لا شيء مثله يجعلهم مهرة ، أقوياء ، يحسنون التصرف في المآزق الحرجة ، ويخلق فيهم القدرة على تحمل اعباء الحروب .

وتلك التمارين تملأ اوقات فراغهم ، طابعة اخلاقهم بطابع خاص ، مميز .

والصيد حق من حقوق الجميع ، يقوم به الفلاح ، كما يتعاطاه ابن الطبقة الرفيعة .

والصيد المرغوب فيه عندهم ، هو صيد الدب ، والخنزير البري ، والنمر ، وهي حيوانات متوافرة في بلادهم . يقود الدروز أولادهم الى الصيد ، عندما يستطيعون حمل السلاح ، فيكافئون منهم الذين يظهرون شجاعة في مواجهة

١ - هذه الخلال التي تميز بها اجدادنا الفايرون يجب ان تكون قدوة لنا في حاضرتنا ومستقبلنا ، لا ان نقرأ عنها قراءة خاطلة ، اذا شئنا ان نكون جديريين بالانتساب الى الشعب الذي حكمه فخر الدين .

الآخطار ، ويتصرون على العقبات ، ويتسلقون مغاور الجبال
الوعرة بخفة ورشاقة .

وهذا ما جعلهم يحملون بحق لقب البطولة ، وحمل الناس
على الثقة بأن درزياً واحداً ، قادر على مواجهة أربعة من الأتراك ،
دفعه واحدة .

إن التمرين المتواصل على استعمال الأسلحة ، كان يمكن
أن يجعل من الدروز قساة غلاظاً ، لو لم تطف فيهم القسوة التي
تخلقها الحرب والصيد ، أخلاق لطيفة ، مهذبة .

وهم أصحاب بشاشة وأنس ، يلقي الأجانب بين ظهرانيهم
معاملة حسنة ، وأخلاقاً رضية ، واستقبالا مهذباً وديعاً .

إذا عرف الأجنبي كيف يحظى بمودتهم ، ويقنعهم بإخلاصه
ومحبته ، وجد بينهم سبلاً للشراء لا تتوافر له في وطنه ، ولكنه
إذا قدر له أن يذنب مرة ، فإن ذكرى ذنبه لا تمحى من مخيلاتهم ،
وعند ذلك ، عليه أن ينجو بنفسه مسرعاً ، هارباً من بلدهم ، لأن
الرغبة في الانتقام منه تنتظره لدى كل لقاء .

تلك هي صفات هذا الشعب الغيور على مبادئه وشهرته ،
العدو للدود للغدر ، المتمسك بالشرف حتى الموت .
إن شدة احساسه بالاهانة ، تعلن عن سرعة الانتقام والغلو فيه .
وهناك شعور متأصل أيضاً في قلب هذا الشعب ، هو الحق
على اليهود والأتراك .

وهذا الحق الذي يلقيه الآباء للأبناء منذ وجودهم في المهد
تولد من السرقات والأضرار التي أحدثها هذان الشعبان في حياة
أجداد الدروز الأوائل .

إن الذكرى تنكأ الجرح باستمرار ، فتجعله أشد فتكاً
واعنف خطراً ، لذلك هم يعذبون اليهود في بلادهم ، فلا يحترمونهم
ولا يضرون لهم أي تقدير ، وإنما يظهرون لهم الكراهية

والسخط (١) •

والفوائد التي يتقاضاها هؤلاء المشردون عادة لقاء ديونهم ،
تكفي لان تجلب عليهم كره الدروز وغضبهم الشديد •
والا تراك كانوا يضربون فيما مضى النفور والتعصب حتى
السخافة المضحكة ، حتى انهم كانوا يتحاشون ان تمزج دراهمهم
بدراهم الاوروبيين ، وان يمسوها قبل ان يطهروها بماء نهر ، او
نبح جار •

وبقدر ما كان حقد الدروز على الا تراك يشتد ، كانت
محبتهم للفرنسيين تتضاعف •

وبالرغم من تعرض بعض تجارنا لجوهر الدين ، فان الدروز
لم يشاءوا ان يحملوا أمتنا مسؤولية غدر بعض الافراد •
ويبدو انه من السهل علينا ان نثبت عندهم شهرتنا ، فتضعف
تجارة الانكليز التي لقيت عندهم كل رواج وجعلوا لها المكان
الاول (١) •

قال السيد « دارفيو » :

« ان الدروز يؤمنون بان ملك فرنسا عادل وليس بطاغية ،
وان اموال الفرنسيين يحصلها الشعب بطرق شرعية ، بعكس اموال
الأتراك التي لا يجنيها الشعب التركي الا بالاختلاس ، والفائدة ،
وامتصاص دم الشعوب » •

١ - هذا الكره الذي يتكلم عنه الكاتب يضمه الدروز للأتراك لانهم اجانب سيطروا
على البلاد العربية عنوة ، واستثمروا خيراتها دون حق ، اما الحقد على اليهود
فلانهم فطروا على الطمع والاستغلال وجنى المال عن اية طريق تتيبر ، واستثنائهم
بالمنافع دون غيرهم ، وليست هناك علاقة للدين والمعتقد في هذا الحقد •

١ - يثبت حديث الكاتب ان المزاخمة على خيرات بلادنا نشأت منذ زمان
طويل ، ومحاولات كل دولة من الدول الغربية استمالة طائفة من طوائف ليمان
كانت بقصد الاستقلال السياسي وجني الارباح ، لا ناتجة عن وحدة المبادئ ، او
رغبة في الصداقة المجردة •

ولا يتبادرن الى ذهننا أن التمارين الحربية والصيد ، هي وحدها الاعمال التي يقوم بها الدروز . فهذا أمر يصبغهم بالهمجية ، ولا يتفق مع الفضائل التي يمارسونها في حياتهم المدنية .
التمرين على السلاح عندهم ، واجب وطني ، لا يتطلب الا بعض الوقت ، والصيد تسلية حرة لا تتعارض البتة مع اعمالهم البيتية التي يتعاطاها الاشراف والعامة . . . الفقراء والاغنياء ، على السواء .

يحسب الدروز التجارة مهنة ذات اجرة ، وهذا المفهوم يجعلهم يهتمون بها ، ولكن الزراعة وتربية المواشي ، فهما حسب رأيهم ، من الاعمال الشريفة ، وتربية الماشية يعيرونها اتبهاً خاضاً ، ويفضلونها على الزراعة ، لان التجربة علمتهم أن العناية التي يولونها للحيوانات ، تزيد انتاج البلاد ، وتحسن نوعيته .
والدروز على اهتمام بالغ بدودة الحرير ، التي يهيئون لها كل ما تحتاجه لمضاعفة انتاجها ، وهي تعطيههم غلة ممتازة ، مكافأة لهم على اتعابهم التي يبذلونها من اجلها ، وحريرهم أجود انواع الحرير المعروف عند جيرانهم الفرس والهنود بنسبة أعلى من اضعاف .

وهذا النتاج الذي يحصل عليه الدروز من تلك الدودة ، يقدر بثلاث نتائج الحرير في بلاد العجم والهند ، اذا نجا الدود من الامراض الوبائية .

ويهتم الدروز كذلك بالنحل ، ويحسنون معاملته مستخرجين منه العسل والشمع بمقادير كبيرة ، حتى أن فائض ما ينتجه النحل يكفي لاستهلاك أكبر الدول الاوروبية .

ويعنى الدروز أيضاً باقتناء الخيول الاصيلة التي يأتون بها من الجزيرة العربية ، فيروضونها ترويضاً ممتازاً ، حافظين أنسابها ، جاعلين أسرجتها ولباسها من جلود الدبة والنمور التي يدبغونها

ويجهزونها بأنفسهم •

ليس بين الدروز من لا يعمل ، فالغني والفقير يعكفان على
الاتّاج العام المشترك ، لأن البطالة بالنسبة اليهم عار كبير •
وهكذا ، نرى الدروز يتقاسمون الاعمال ، فمنهم من يحرث
الارض ، وآخرون يحصدون الغلال ، وغيرهم يعنون بتربية
المواشي ، والنحل ، ودود الحرير ، وغير ذلك •
وهناك من يعملون في غزل القطن ، ليصنعوا منه الستائر
والحجب • وبعضهم يرعون الثيران التي تعطي أفخر اللحوم •
أما الفقراء فيجمعون تلك الاعشاب ، الغريبة ، النادرة ،
التي تكلمنا عنها من قبل ، فيحرقونها مستخرجين منها الرماد الذي
يتهافت الاجانب على شرائه •

ونرى أن الدروز كذلك ، يتمتعون بذوق خاص في انشاء
وفي السهل الفسيح الممتد من جبال لبنان الى البحر ، حيث
الحدائق ، فطبيعة أرضهم ، واعتدال المناخ ، وموقع بلدهم يقوي
فيهم هذا الميل •

لا تقسو الطبيعة ، ولا تعرف أيامها الجليد ، تتكاثر الاشجار ذات
الثمار اللذيذة التي تكون دوماً أما مزهرة ، او مثقلة بالثمار •
وبالرغم من اهمال الدولة للعلوم ، وانعدام روح التنافس
في هذا المضمار ، فقد نبغ في تلك البلاد كتاب مشهورون ، لأن
الدروزي بطبيعته ، عميق النظرة ، ثاقب الفكر ، حاد الذكاء ، نافذ
البصيرة •

ويعكف عقلاء الدروز على علم الكيمياء ، والطب ، ودراسة
العقاقير ، وهم يرغبون كثيراً في فن الطباعة ، ولا شك في أنه
سيبرز فيهم رجال عظام حين يمارسونها ممارسة دائبة •

ان اللغة اليونانية والسريانية والعبرية ، شائعة عندهم ومألوفة
(١) ولكن لغتهم الاساسية التي يستعملونها في مخاطبتهم فهي
العربية فقط .

أما التمييز بين الطبقات عندهم ، فيبدأ منذ الولادة ، حيث
يقدم الامير ، حسب مشيئته ، اناساً على أناس .
والذين يولدون اصحاب رتب هم : الامراء ، وكبار الامة ،
والشايخ ، وهم يتمتعون بحقوق كبيرة ، كالحكم المطلق في
مقاطعاتهم ، وشبه الاستقلال عن الامير . ولكنهم يتحدثون فوراً
حالما تتعرض سلامة الوطن لاي خطر او عدوان .

ان قدماء الدروز جميعهم من الاشراف ، وهم يعرفون تماماً
أصلهم وتحدرهم ، وينسب اليهم الافراط في الاعتزاز والفخر .
والرتب المميزة هي لحكام المقاطعات ، وقواد الجيوش ،
ولبعض الوظائف العسكرية التي لا يمنحها الامير الا لاصحاب
الكفاية والقدرة . ولذلك يأمل أي موظف ان يصبح ، ذات يوم ،
من الطبقة المعروفة .

ويمنح الجنود ألقاباً محترمة لانهم حماة الوطن ، وكذلك
رجال السياسة .

١ - يقصد المؤلف هنا بالشعب الدرزي جميع الطوائف التابعة للدولة الدرزية ،
لا الدروز وحدهم ، ولذلك تكلم من تعدد اللغات عندهم .

نظام الحكم وسياسته الدولية

الحكم عند الدروز ورأئي ، ينتقل الى الخلف الذكور دون الاناث . واذا اتفق ان استقال الامير من الحكم ، فان ولي العهد يتسلم زمام السلطة مكانه .

ويكون الوارث ابن الامير الاكبر ، الا اذا لم يرزق الامير ذكورا ، فان الحكم في هذه الحال ينتقل الى أقرب الناس اليه ، اذا كان أهلا لذلك .

وابناء الامير ، اسوة بابناء الشعب ، يخضعون للتمرين على الصيد ، واستعمال الاسلحة ، لان ذلك يخلق فيهم الشجاعة والحدق والقوة التي يجب ان تتوافر في من تنتظرهم أعمال الدولة . وهذه الخاصة لا تراها في الامراء الشرقيين الذين يترعرع ابنائهم على تربية مخنثة ، تجعلهم جبنا ، غلاظا ، فاسدين .

ولا يعهد في تربية الامراء الى معلمين ومربين ، بل يترعرعون تحت رعاية آبائهم ، وبأشرافهم .

والحكومة ، وان كانت تقوم على مبادئ حرية ، فانها تشبه الى حد بعيد ، حكومة ملوك فرنسا الاقدمين . فالامير له الحق بالتعبية العامة . . . وبقيادة الشعب الى الحرب . . . وب عقد المعاهدات والمحالقات . . . وقيادة الجيوش . . . وتعيين الموظفين . لا يمكن ان تكون اسباب الحروب عندهم ، غير الدفاع عن كرامتهم اذا لحقت بهم اهانة او اصابهم اعتداء هدد حريتهم ، لذلك لا يعفى من الخدمة العسكرية أحد ، لان شريعة حكومتهم تفرض على كل فرد ان يقوم بقسطه في الدفاع العام .

أما اذا قام الامير بحرب ، لاسباب غير تلك ، وبدت لكبار البلاد خاطئة ، فانهم في حل منها ، ولهم الخيار بين ان يشتركوا

فيها او ان يقفوا موقف الحياد .

وبما أن هذا الامر اذا حدث ، يعرض البلد لخلافات أهليه تغذي مطامع الاعداء ، فان الامير لا يقوم بالحرب ، الا بعد أن يدرس أمرها دراسة موضوعية تبدو لشعبه عادلة ، صحيحة ، واجبة .

كما ان هذا لا يعني أن الامير، بصفته قائد الجيش، لا يمكنه فتح نار الحرب أو وقفها ، وتحت تصرفه فيالق منظمة ، مدربة أحسن تدريب ، يبلغ عددها من الكثرة بحيث يمكنها صد هجوم متتي الف تركي ، عدا أن النصاري والمسلمين يخلصون له ، ويبدلون أنفسهم من اجله ، وهو يلقب « بحامي النصاري » و « أبي المسلمين » . وهذان الشعبان يخضعان لاوامره في الحروب .

ومن ناحية ثانية فان جنود القلاع والموظفين فيها ، يتعلقون به ، محترمين ارادته ، من قبيل الواجب ، والشرف ، والسلطة .
اذن ، يستطيع الامير ان يكون قوياً ، مهاباً ، دون ان يلجأ الى قوات حكام المقاطعات ، ولا شك في أن الحلف الذي يضم الموارنة والمسلمين هو أكبر دعامة للملكه .

ومهما بلغ الدروز من الشجاعة والقوة ، فانهم يكونون معرضين لمطامع الاتراك وتعدياتهم ، لولا هذا الحلف .
لهذا نرى الامير دوماً ، يبدي اهتماماً خاصاً بحلفائه الذين يحميهم ، ويقوم بكل ما يقوي عرى التماسك بينه وبينهم ، دون أن يخفف من هيبة سلطته .

وكلا الشعبين ، الماروني (١) والمسلم ، يشعر بضرورة هذا التآلف . وهذا التضامن الوثيق ، حمل البلاط العثماني على

١ - يبدو أن الكاتب يعني (بالموارنة) جميع الطوائف المسيحية ، وربما كان ذلك لجهله ان في لبنان طوائف مسيحية اخرى

اضطهاد اللبنانيين ، متفانياً في محاولة اخضاعهم وتفرقتهم ، وذلك ما قوى فيهم الشعور بالحاجة الى هذا الاتحاد قاضين على كل سياسة تحاول اثاره الشقاق بينهم .

وكان الباب العالي ، الذي اقلقه هذا التحالف ، اذا حاول الاعتداء على أحد المتحالفين ثار الجميع مؤتلفين لصد الاعتداء ، معتبرين أن اي أذى يلحق بفئة واحدة ، يصيب جميع الفئات ، وخصوصاً الاعراب فانهم كانوا لا يتوانون ، عند اي خصام ، عن الاقدام على قطع الطرق ، ممعين في مهاجمة القوافل والحجاج . أخيراً رأى العثمانيون أن لا مندوحة لهم عن مسالمة الدروز ومراعاتهم ، والامتناع من اثارته ، وعدم ترك المجال أمامهم للثورة على نير الامبراطورية ، كما حدث مع البربر ، وفي مصر .

والامير ملحم ، على الرغم من العضد الذي وجده في حلفائه ، أحسن التصرف مع الامبراطورية العثمانية ، لاجئاً الى الحكمة والمسايرة في كثير من الاحيان ، لانه يعلم جيداً ، ان تمتع الدولة بسلم طويل ، يقوي مركزها ، ويثبتها ، وينمي مرافقها أكثر من الانتصارات الحربية ، وهو يدرك كذلك أن وطناً مجارباً ، ماهراً في فنون الحرب ، عليه أن لا يهمل التحصن ، وتوفير القوى الدفاعية ، لانه اذا اهملها زاد في قوة اعدائه وبدل بجبينهم شجاعة ومهارة .

لجأ الامير الى حسن التصرف ، والمسايرة الملائمة لرجال الباب العالي ، مجتهداً في ان لا يثير حسدهم وجشعهم ، متظاهراً بالفقر الشديد عند طلب الجزية التي يفرضها السلطان . وكان في الوقت ذاته حذراً كيلا يفرط في احترامه داخليا وخارجيا . ان وضع الدروز يتطلب وضع قانون قاس ، فهم لا يتوانون عن الانتقام بسرعة اذا نالت الامة أهانة ما ، كما انه لا يمكنهم مقابلة حال كهذه بالرحمة واللين .

والذي يسترعي الانتباه، هو أن الغريب الذي يقبلون لجوءه اليهم ، تحميه الامة باجمعها لدى أي اذى يصيبه ، والمثالان الآتيان ، كافيان لاثبات ذلك وسنوردهما على عجل لنبرهن لملك فرنسا عن الاحترام الذي يكرمه له شعب ننتهمه بالهمجية .

ان الاب « فانتوري » الذي ذهب الى عينطورة ، المكان الذي اتخذته اليسوعيون مركزاً لهم ، اختلف مع رؤسائه بشأن راهبة كان يرشدها ، ويقال انها قديسة ، تأتي بالمعجزات .
ولسنا ندري لاي سبب منع رؤساء الدين الاب فانتوري من مقابلة الفتاة ، وازمعوها على نفيه الى اوروبة .

رفض الاب اليسوعي الانصياع لاوامر رؤسائه في الابتعاد عن هداية الفتاة ، لانه كان شديد الايمان بصلاحها ، ويرى في تركه اياها عملاً مخالفاً لله ، ولتعاليم السماء . وكان الدين ، وايمان الاهالي بعجائب الراهبة المزعومة ، يزيدانه اصراراً على رأيه .

اغضب هذا الرفض رؤساءه ، فتوجهوا الى قنصل فرنسا في صيدااء يرجون منه دعوة الاب فانتوري اليه والالتماس من الأمير ان يبعده .

ودون ان يدرك القنصل واجباته نحو الأمير ، بعث مترجماً وقواسين وأمرهم بالقاء القبض على الاب فانتوري ، دون اعلام سيد البلد .

قبض الثلاثة على الاب اليسوعي ، واكلوه بالقيود ، ثم اقتادوه الى قرية ساحلية ، نزلوا منها الى البحر ، متوجهين الى صيدا ، ولكن حظ الاب كان كبيراً ، اذ هبت عاصفة ارغمت المركب على الرسو في بيروت .

وهناك ، بعد ان أدرك الاب انه في بلد مستقل ، حر ، ناشد الاهلين أن يأتوا لنجدته ، طالباً حق اللجوء اليهم ، هرباً مما لقيه

على ايدي الرجال الثلاثة من ظلم .
وأسرع الاهلون الى النجدة واصبح من الصعب جداً تهدئة
ثورة الشعب ضد المترجم والقواسين ، بانتظار نتيجة المحاكمة التي
سيجريها الامير المقيم في بيروت .

وحقق الامير في ملابسات القضية ودرسها ، ثم طلب
اخلاء سراح الاب في الحال ، وسجن الرجال الثلاثة ريثما
يصدر الحكم عليهم بالموت ، اذا لم يتدارك القنصل تلك الالهانة
الصادرة عنه ، ويصلح اخلاله بمعاهدة « حقوق المواطنين » .

قال الامير ملحم : « لو طلب القنصل مني هذا الراهب ،
اكننت سلمته اياه ، لانني لا احمي المتمردين والعصاة ، ولكنه ،
بعد أن استخف بسلطتي ، واحتقر امارتي ، فقبض على الاب من
غير اذني ، فسأحكم بالموت على رسله ليكونوا درساً له وعبرة » .
وعلم القنصل بالحادثة ، فقلق ، وشعر بالخطر الذي زجه فيه
غروره ، وخوفاً ان يعرض احترام دولته للتأويل اذا جاء هو بنفسه
للمفاوضة ، طلب شفاعة باشا دمشق ، الذي استطاع ان يحصل
على حكم بالعفو عن الاسرى واطلاق سراحهم ، ولكن الاب
اليسوعي بقي في حماية الامير ، حراً ، معزواً ، في موطن الدروز
الكريم .

وبعد هذه الحادثة بوقت قصير، قتل المتأولة احد الكبوشيين
الفرنسيين، في احدى مقاطعات الامير . والمتأولة هم فريق متوحش
من المسلمين ، ويؤمنون بان قتل مسيحي في رمضان عمل محبب ،
يرضي الله . (١)

١ - هذا تليفق وافتراء على الواقع ، ولا عجب في ان يقول هذا فرنسي يحكم
على اساس ما يسمع لا ما يشهد ويختبر . فالتأولة قوم طيبون يتميزون بجميع
الخلل العربية ، ويدرك ذلك كل من يجاورهم او يتعامل معهم ، ويرى مقدار
ما يتحلون به من فطرة طيبة .

ولما علم الامير بالخبر ارسل فرقة مؤلفة من خمسين فارساً ،
اشعلت النار حسب اوامره ، في كل ممتلكات الشيعة ، دون ان
تبقى حتى على السنابل الناضجة التي حان حصادها . وعلاوة على
ذلك فقد اقتيد بعضهم ليلقوا موتاً محزناً ، كان عبرة للجميع .
ويوم مصرعهم بالذات ، قال الامير لافراد اسرته وهو الى
مائدة الغداء .

« لم أصدر هذا الحكم فقط ، لانه عادل وضروري لاستتباب
الامن في وطني ، ولكن لحماية المسيحيين ايضاً ، واحتراماً للملك
فرنسة الذي اكن له المحبة والتقدير ، لانه ملك عظيم » .
وتفادياً لوقوع مثل هذه الحوادث ، زود الامير موظفيه
والاجانب الذين يحميهم ، بحلقات حفر عليها خاتمه . وتلك الحلقات
كانت كجوازات السفر ، تمكنهم من الانتقال الى الجزيرة العربية ،
أو اي قطر من اقطار الامبراطورية ، دون ان يخافوا اعتداء على
ارواحهم او يخشوا اغتصاباً لاموالهم .

والامر الذي يستحق التدوين ، هو أن هذا الحاكم الذي سن
القوانين العادلة ، القاسية ، محافظة على الامن ، استبطاع أن يجعل
الطمأنينة والرفاهية تغمران أرضه ، وتملأن نفوس موطنيه .
وهذه الحال ، اذا لم يغتر بها الحاكم ، هي اساس لسعادة
الشعب وقوة للأمة . . . الأمة التي يكون فيها الملك ملكاً حقاً
بقدر ما يكون أباً لها وراعياً . (١)
وهذه الحال ايضاً هي التي تحمل على الانسجام والتآخي
وتجعل الناس ينسون شقائهم الطبيعي .
وهي في النهاية ، تدفع الاهلين الى حب الحاكم وتجمعهم

١ - لم الجا في الترجمة الى المعنى فقط ، مهمل اسلوب الكاتب الفرنسي
وكيفية ترابط جملة ، انما اهتمت بتلاحق معانيه وجملة ، جاهد قدر المستطاع
ان لا ابعد عن طريقة هذا الكاتب الذي كتب بأسلوب علمي جاف ، بعيداً عن الطلاوة

تحت رايته ، وتقوي فيهم الميل الى احترامه والخضوع له •
ان دولة الدروز القوية من جميع نواحيها ، ولا سيما المراكز
الدفاعية الطبيعية ، والقلاع العظيمة ، تجعل الامير لا يرهب
الاعداء ، خصوصا حين يعرف كيف يحافظ على الألفة التي غمرت
البلاد منذ زمن بعيد ، بين قومه والموارنة والعرب •

لذلك نرى الدروز لا يهتمون بفضول الباب العالي ، ولا
بالنيات التي يضررها لاذلالهم •

اذن ، لم يبق للامير الا ان يعامل موطنيه المعاملة ، اللطيفة ،
الحسنة ، التي تخلق الرهبة الناتجة عن الحب والاحترام ، وان
يوفر لهم جميع الاسباب التي تضمن لهم العيشة الهائلة ، وان يمنع
عنهم الحيف والظلم ، وان يعمرهم بالسعادة ، حتى لا يفكر أحد
منهم في تغيير نظام الحكم •

تلك كانت الاعمال التي تمشى عليها الامير ملحم الثاني، وقد
عرفه موطنوه أميرا لا يعطي اناسا على حساب آخرين • فكان
يعرف مدخول كل فرد وما يملك ، وكانت الضريبة نسبية تجبى
باعتدال ، مما دعا الاهلين الى دعوة الجابي اليهم لتحصيلها منهم ،
حتى لا يضطر الامير الى الاعتماد على ايد غريبة •

وكان الامير يقيم المحاكمات بنفسه ، بحكمة ، وعدل ،
وكياسة، جعلت الناس يعتبرونه حكما ووسيطا ، اكثر من ان يكون
قاضيا قاسيا ، يمكن ان يشط به الجهل او المحسوبة مرة ، عن الحكم
العادل ، الحكيم •

وليس من العجب في شيء ، ان نرى أميرا يحمل على عاتقه
اعباء الدولة بأسرها ، يدير في الوقت عينه المحاكمات العادلة •
وتلك المحاكمات كان لا يطول امد البت فيها ، اذ ليس في
البلد تشكيلات وتوطئات ومرافعات ، تؤخر اصدار الحكم ، لان

الامير على علم واضح باخلاق كل فرد من شعبه ، وبمسلكه وسيرته ، لذلك لا يصعب عليه اصدار احكام عادلة تقطع الطريق على الاحتجاجات والاعتراضات •

والامير ، لا يجد حرجاً في اثبات ميزان العدل ، الا حين تكون الخلافات ناجمة عن التجارة ، وهذا نادراً ما يحدث ، لان المعاملات التجارية تجري يدا بيد ، وتدفع المبالغ المالية نقداً ، او بالمبادلة المباشرة •

فاذا حدث شيء من هذا ، يحار القضاء الى أية جهة يميل • وفي محكمة الأمير ، يدافع الفرد عن قضيته بنفسه ، ويصدر الحكم حالما ينتهي الدفاع •

اذا اعتدي على انسان ، او على ممتلكاته ، دعا خصمه الى المثول أمام الأمير ، فاذا رفض ، عرض الشاكي قضيته ، وشرح شكواه وحده ، وسرعان ما يصدر الأمير حكمه في غياب الخصم • وكثيراً ما يحدث ، ان يلجأ المواطنون في خلافاتهم الى اشخاص حياديين ، يختارونهم بانفسهم ، كحاكم المدينة مثلاً ، او أقرب شيخ اليهم ، أو احد المقدمين • وهذا الحكم لا يحكم الا بالعدل ، ولا يسيء الى الثقة الموضوعة في شخصه ، لذلك يستحيل ان يفصل بين المتخاصمين ، الا بالحق • اما حكمه ، فنافذ ، ومقبول •

يظهر من ذلك ، ان الدروز لا يهرعون الى الأمير ، الا في الحالات المستعصية ، التي تحتاج الى سلطته ، وهيبته • والعجيب في الامر ، ان الغني لا يمكنه ان يقترح على خصمه ، اذا كان فقيراً ، حل مشكلته عن طريق المال الذي يدفعه له ، لأنه اذا رفض هذا الاخير وعرف الأمير بذلك ، فلا يأملن ذاك الغني بالحصول على حقه •

ان النكث بالعهود والغدر ، يلاقيان عند الدروز اشد العقاب ،

كما أن القتل والسرقة عقابهما الموت ، دون اي اعتبار ، او مراعاة (١) والواشي ينال عقاباً قاسياً ، ولا يحظى بشيء من الرأفة . أما المذنب ، ايا كان ذنبه ، فليس هناك من قوة تستطيع ان تجنبه القصاص الذي يستحق .

أما الضرائب عند الدروز فتلاثة انواع لا تتبدل :

الاول : يدفع رب العائلة نقداً ، وتقدر بسبع ليرات وعشرة «صول» حسب عملتنا . وهذه الضريبة المخزية التي تفرض على شعب يضحي من اجل راحته وثروته كي يتخلص من سيطرة الاجنبي ، هي ضريبة تقدم الى السلطان .

وبحجة تنفيذ أوامر السلطان ، كثيراً ما كان يلج باشا دمشق في جباية الضرائب من الامير ، قبل حلول موعدها .

وحين تتكرر طلباته ، ويزداد الحاحه ، يضطر الامير الى دفع ما عليه للامبراطورية حريراً يكون نصيب الباشا منه ثلث مقداره . أما الضريبتان الاخريان فهما للامير ، وتفرضان على الاشجار المثمرة وغيرها من المحصولات .

وأكبر قسط من الضريبة يقوم على الحرير ، ولكن ثبات الضرائب وعدم تغييرها ، يجعلان المكلف يعرف تماماً ما عليه تجاه الدولة ، فيزيد من انتاجه .

وعدم تغيير الضريبة يمنح الموطن تشجيعاً وحيوية ، اذ على نشاطه تتوقف ثروته وراحته .

هذا الشعب الذي يتعاطى الزراعة داخل ارضه ، محققاً مهنة التجارة ، قانع بالقليل ، يملك بلداً غنياً بالمواد الاولية ، وهو أنشط شعوب العالم ، وأحسنها اقتصاداً .

كل فرد في هذا البلد ، يقوم بصناعته الخاصة . والشرف

١ - يستساغ القتل عند الدروز اذا كان دفاعاً عن عرض او محافظة على كرامة .

ليس في المهنة ، وانما يقوم على الفرد ، فمن بيده المحراث يفلح به الارض ، لا يقل احترامه عن احترام حامل السلاح في الميدان .
واعتماداً على تلك المبادئ ، نرى الشعب يهدف الى الصيانة العامة ، داعماً قوة الدولة وهيبتها ، خالقاً مجتمعاً صالحاً ، غنياً ، مبعداً عنه البطالة التي تفسد الاخلاق ، وتولد العيوب .
كما أن التعصب في الرأي ، لا ينتج عنه اي نوع من الشعب أو الفتنة ، وانما كل ما في البلاد يدعو الى الألفة ، وينشر حلاوة السلم .

ليس حاكم الدروز مستبداً وظالماً ، كما يزعم بعضهم ، وليست حكومته دكتاتورية كما يزعم آخرون ، وهو اذا مارس سلطة مستبدة بعض الاحايين ، وان كانت ارادته تتخذ شكل القانون بعض المرات ، فان ذلك لا يحدث الا في احوال قاهرة ، نادرة .

وهذه السلطة المستبدة ، اذا اتفق ان ظهرت ، فلا تكون على حساب حرية المواطنين وحياتهم ، ولا على حساب حرية اللاجئين وحياتهم ايضاً .

ان سياسة الامير ملحم ، كانت تقوم على ارضاء شعبه وحلفائه ، وتخويف الاثراك وارهائهم .

انه لنموذج جميل لدولة صالحة ، يلجأ أميرها في سياسته الى تفضيل المحبة على الارهاب ، اذ على هذا المبدأ تتوقف قوته ، اما غير ذلك ، فيجعل الحاكم طاغية أكثر مما هو ملك ، ويحول سلطته الى تهلكة رهيبية ، فاجعة .

ان محبة الامير لشعبه ، واحترامه آياه ، هما الدليل الواضح على حكمته ، وعظمته .

علينا اذاً ان نبحث عن هذا الدليل لنذكر اذا كان الحاكم يحكم بالعدل ويتبوأ مركزه عن جدارة .

وهذا الدليل يحمل الحقيقة أكثر مما تحمله مبالاة حاشية البلاط ومعاملتهم باللين ، وتحمل تفاهاتهم ، وتعاليمهم ، وصلفهم •
ان الملك الحكيم ، المستنير ، لا يخفى عليه الخطأ ، وهو يدرك ان ما تخطه يده ، ينقش في قلوب رعاياه ، خطوطاً اعماق من الخطوط المحفورة في النحاس •
وتلك الخطوط اذا كانت عاطلة ، تترك في ابناء الاجيال المقبلة آثاراً مخجلة ، يجدون أن من الكرامة دفنها في نسيان أبدي ، وهي تذكر الآتين كذلك بان آباءهم كانوا ماهرين في خداع الملوك (١) •

تجارة الدروز

لاحظنا مما سبق ، تفوق منتجات الوطن الدرزي ، على البلاد المجاورة له ، كالهند وبلاد فارس مثلاً • فيمكننا اذاً أن ندرك من ذلك الفائدة الكبيرة التي يجنيها المتعاملون مع الدروز تجارياً •

والذي يزيد في أهمية التجارة مع الدروز ، هو أنها تقوم على المبادلة بالمواد الأولية التي اذا قدر لها ان تدخل مصانعنا وفرت السعة والثروة •

ولكي نعطي فكرة واضحة ، علينا ان نتعرف الى تجارة الدروز منذ نشأتها الى ايام حكم الامير ملحم الثاني •
وبعرضنا حال تجارتهم الحاضرة ، يمكننا ان ندرك العيوب التي رافقتها ، ومن ثم سننتقل الى الاصدار والاستيراد ، وبعد

١ - ان ما جاء في هذه الاسطر يدلنا دلالة واضحة على ان المؤلف كان يلجأ الى التلميح لاصلاح ملك فرنسا الذي كانت النعمة عليه قد سعدت من الصدور الى اطراف الشغاف ، لان الكتاب صدر قبل الثورة الفرنسية التي نشبت سنة ١٧٨٩ •

ذلك سنورد الفوائد التي يجنيها الاجانب من التجارة المباشرة
مع الدروز •

تجارة الدروز منذ نشأتها الى عهد الامير ملحم الثاني

ما كاد الامير فخر الدين يفتح القلاع، ويستولي على مرفأى
بيروت وصيحاء، حتى هياً للاجانب جميع الاسباب الكفيلة بجذبهم
اليهما •

وسرعان ما غص المرفأان باليونان ، واليهود ، والمغاربة
الذين لحق بهم بعد وقت قصير ، ابناء فلورنسا ، والبندقية •
ان الارباح الطائلة التي جنتها تلك الشعوب من التجارة
الدرزية الناشئة ، حملت اهل مرسيليا على المجيء الى لبنان أيضا
ليقاسموا تلك الشعوب بعض الارباح الطائلة •
والامم الثلاث ، نعمت بالتجارة الدرزية وحدها لمدة سنوات
عديدة •

ولكن ما كادت اخبار الارباح تصل الى الانكليز حتى هرعوا
الى منبع تلك الثروة ، يزاحمون ، بنشاط ، ابناء الامم الاخرى •
ومنذ ذلك الحين، أخذ ابناء البندقية ، وفلورنسا، ومرسيليا
والانكليز ، يتسابقون الى انشاء مؤسسات في بلد فخر الدين •
وتقدر الارباح التي كانوا يجنونها من التجارة ، بحوالي
مئة وخمسين للمئة ، والذي يدعوننا الى تصديق ذلك ، ان الدروز
الذين الفوا منتجاتهم ، كانوا يجهلون أثمانها ، والفائدة التي
يحصلها الاجانب منها •

ولكن جشع التجار الآثمي الذكر أظهر الدروز في الحقيقة ،
على قيمة ما عندهم ، ولكنهم في الغالب كانوا لا يقدرون قيمة
المنتجات الوافرة التي كانوا يجنونها ، فيغتزمون الفرصة لكي

يتخلصوا منها ، ظانين ان غيرهم لا يجني منها الا فائدة بسيطة ،
وهكذا لم يدرك الدروز خطأ مفهومهم الا بعد خبرة طويلة •
كان الدروز ، يتلقون بشغف كل ما يحمله اليهم الاوروبيون ،
واثقين بصورة عمياء ، بكل الاسعار التي يفرضونها على منتجاتهم •
في احوال مماثلة ، وحين يستطيع الانسان أن ينأى بضميره
عن المبادئ المستقيمة ، تتم الصفقات الكبيرة ، وتقوم الثروة على
حساب سذاجة الآخرين •

وهذا ، من غير شك ، ما أراد ان يبرزه « بلاتون » حين قال :
« ليست التجارة سوى وسيلة شريفة ، لامتلاك ما للآخرين ،
دون ان يؤدي الامتلاك الى عواقب وخيمة » •

وهل الصفقات التي حصل عليها الناس ، من سواحل افريقية ،
سوى جرائم ، على الشرف أن يدفنها في عالم النسيان ؟
ما أبشعها صفقات ، قامت على الغش الفاضح ، مستغلة
الجهل الكبير في السود ! •••

اذا كان حقا ان قانون الطبيعة ، يفرض المساواة في الاعمال
المتبادلة بين الناس ، فأى خزي يلحق بالاخلاق بسبب تلك الجرائم ؟
ان اليهود ، واليونانيين ، والمغاربة ، ما كادوا يشعرون بأن
الاوروبيين يضعفون تجارتهم ، حتى جمعوا مجهودهم لايقاظ
الدروز ، وافهامهم سر التجارة ، ولكن مزاعمهم ذهبت باطلا ،
وانقلبت محاولاتهم الى غير ما كانوا يأملون ، لان الدروز شكوا
بنصائحهم وآرائهم ، وازدادوا ثقة بالاوروبيين •

والاوروبيون ، افهموا من ناحيتهم الدروز السريعي التصديق ،
جشع تلك الشعوب الحاسدة ، ورئاءهم ، متابعين تجارتهم بالمبادلة ،
يدأ بيد ، يعطون منتجات حقيرة القيمة ، مقابل مواد أولية ثمينة •

وفي هذا التزاحم التجاري ، نعم التجار الفرنسيون ، بحظوة
بالغة عند الدروز ، الذين كانوا يفضلون المتاجرة معهم ، على
المتاجرة مع غيرهم .

وكانت التجارة أكثر ما تقوم على المبادلة بالجوخ . وكان
جوخنا أفضل الاجواخ ملائمة . وكانت اقساط الديون تدفع لنا
بصورة أسرع كثيراً مما تدفع ديون منافسينا ، مع العلم انه كان
على اولئك المنافسين اما ان يأخذوا هذا النوع من البضاعة منا ،
واما ان يلجأوا الى المبادلة ببضائع أخرى .

ولكن بضائعهم تلك لم تكن تكفي لعملية المقايضة ، ولذلك
كان التجار غير الفرنسيين ، مضطرين الى دفع فلوس فوق ما
يحملون من بضاعة .

وكان من واجبنا نحن ، ازاء ذلك ، ان نحفظ بهذه الميزة ،
وتلك الحظوة ، ولكن الجشع وعدم الصبر اللذين اظهرهما ابناء
وطننا — اذ كانوا يريدون ان تؤدي التجارة وبسرعة الى جمع
الثروات الطائلة — كانا العاملين اللذين جعلنا الانكليز يسلبوننا
تلك النعمة التي كنا نتمتع بها .

هذا ما أراده « ديفلانده » حين قال :

« تلاشت معامل « لانكدوك » وسلب الانكليز منا أكثر
اسواق الشرق . وكانت تلك المعامل تمون الشرق بالجوخ المصبوغ
بجميع الالوان .

كان الرواج سريعاً ، والربح مضموناً ، بما جعلنا نعمل بأقل
ما يكون من العناية . وكنا لجهلنا ، لا نشك في أن الاتراك والعرب
الذين الفوا الاقمشة الفرنسية ، لا يتوقفون عن متابعة استعمالها ،
وأنهم لا يتمتعون بالفهم الكافي للتفريق بين أصناف الاجواخ التي

تقدم اليهم • وبعد الفتور الذي اصاب تجارتنا ، نشأت المعاملة السيئة ، وتلا المعاملة السيئة ، الغش والخداع اللذين لجأ اليهما تجارنا ، الى درجة أن الانكليز استطاعوا ان يسلبونا منافع التجارة ، لانهم كانوا يتحلون بالكياسة والامانة والصدق » (١) • على هذه الحال ، كانت تجارة الدروز ، حين أملت بفخر الدين الكارثة التي ابعده عن وطنه •

وبعد ذلك أصبحت البلاد فريسة لجيش الاتراك الذي راح يعكر صفوها ، محدثا الخراب أينما حل • وافتقرت المزارع الى العناية ، وكادت تخلو المدن الا من الاتراك الفاتحين • أما مرفأ بيروت وصيداء اللذان كانا في الماضي يغصان بالبواخر الاجنبية ، فقد باتا بعد ذهاب ذلك الامير ، ملجأ لبعض الفئات الغبية التي لا تعرف الفن ولا التجارة •

وعلى الرغم من انتقال الحكم الى الورثة الشرعيين ، فان البلاد لم تكن احسن حالا مما كانت في زمن الاتراك ، لان سوء حكم الامراء ، دفع الشعب الى قطع الطرق والسلب كي يوفر اسباب العيش •

أما اخضاء فخر الدين ، فقد لجأوا الى حكومات الباشوات في صيدا ودمشق ، وعكفوا على زراعة الارض التي استعادت بنشاطهم خصبها ووفرة غلالها •

وبقيت مدينتا بيروت وصيداء ، في موت تجاري ، الى ان جاء ملحم الثاني الذي أعاد التجارة الى حالها السابقة •

١ - جبدا لو بعث مؤلف هذا الكتاب حيا من جديد كي يدرك أن شهادته بصدق الانكليز لا تنطبق على واقعهم الاستعماري •

المعايب الناجمة عن الطريقة

المتبعة في التجارة الدرزية

تألم ملحم الثاني كثيراً ، بعد أن تسلم الحكم ، بسبب ما وصلت إليه حال الدولة الدرزية .

لقد كان ممثلي النفس بالعظمة التي تخلق الملوك العظام ، فتخلى عن القواعد التي سار عليها سابقوه ، متقدماً بخطى حثيثة ، لاتخاذ قواعد جديدة . فعرف كيف يخلق في قلوب موطنيه ، روح الحمجية التي كانت قد غمرت جسم الامة .

كان الامير ملحم قدوة في الاخلاق الحسنة ، فاصلح العادات المتوحشة ، (١) وقوم المبادئ المعوجة التي اتسم بها الامراء السابقون ، في نفوس الشعب . وكان ذلك عن طريق القوانين التي اتخذت العدالة ، والल्प ، والحزم ، اساساً لها .

وكان لتلك البداية المحمودة أثر طيب في نفوس الاعراب والوارنة ، فهرعوا جميعاً لاقامة الصداقات وعقد المحالفات مع الامير ملحم ، وخصوصاً الموارنة المدعوون ، قبل غيرهم ، الى التحالف مع الدروز واكتساب صداقتهم .

واستعادت البلاد سلمها ، ومحبتها ، والفتها . وعادت الحماسة تسيطر على جميع الاعمال ، فاستتبّت الوحدة العامة ، واصبحت المواصلات حرة ، وعاد ابناء الشعب ، من جديد ، يبدون العناية الشديدة بالارض ، آتين بأنواع من الاغراس جديدة لم تكن متوافرة من قبل .

٢ - ترى هل تنطبق نعوت الحمجية والتوحش وما شابتهما ، حتى في تلك الايام على اللبنانيين اكثر ام على الفرنج القرن العشرين الذين باعوا الدين والمبادئ المثلى بفلس الصهاينة الملوث .

وكان الجميع لا يفكرون الا في التملك ، بالطرق الشرعية ،
وفي التمتع بالخيرات دون تأنيب الضمير •
في البداية ، كان دخل الفرد لا يزيد على معيشته الخاصة ،
وكفايته ، ولكن جودة المناخ ، وخصب الارض كانتا كافيتين لان
يجعلا الدروز في فترة قصيرة ، يتنعمون بتجارة واسعة مما يفيض
عنهم من الغلال •

ان الثمار الاولى ، كان يتقاسمها المصريون ، ولكن
المسيحيين ، بعد رجوعهم تحت حماية الامير ، عادوا الى المقاطعات
فأخصبوها ، وجعلوا الخيرات تتدفق منها ، حتى المناطق القاحلة
التي حرمتها الطبيعة الخصب جعلوا تربتها تجود بالخير والعطاء •
ولو كان الاوروبيون يذكرون الفوائد التي كانوا يجنونها
في الماضي من منتجات الدروز ، لجربوا اليوم ان يعودوا الى
الاتجار معهم •

ومما لا شك فيه ، ان الاوروبيين ، بعد أن علموا بقيام
حكومة جديدة للشعب الدرزي ، رجوا من الباب العالي السماح
لهم بانشاء قنصليات ، ومؤسسات •

وتلك ، طبعا ، ثمرة حكمة امير مستنير ، واع •
ان الحكام الحقيقيين ، هم الذين يملكون القدرة - في
مملكتهم كلها ولمصلحة كل فرد من افرادها - على أن يهبوا
شعوبهم ما تهبه الشمس للعالم بأسره •
بهذه السياسة ، يكون الملوك حكاما جديرين بهذا الاسم ،
اذ يضعون امام اعيننا صورة للاله • وبكلمة اخرى ، يكونون

عظاما بقدر ما يقومون باعمال يفرضها عليهم واجبهم وشرفهم *
وما كان مجهود السلطات الاوروبية يسفر عن عقد معاهدات
تجارية مع السلطان ، حتى اخذ تجارها يخرجون الى فلسطين ،
لا ليعبروا منها الى وطن الدروز ، الذين كان دخول ارضهم محرما
على الاجانب ، لان السلطان كان قد احتفظ بملكية المرافىء ، تاركا
للأمير ، عوضا عنها ، مناطق اخرى * لذلك كانت
التجارة لا تتم الا عن طريق العملاء ، وهي الان ما تزال تجري
بهذه الطريقة على الرغم من استعادة الأمير ملحم لسيادته على
بيروت *

واذا شاء تاجر اجنبي أن يدخل بضائعه الى بلاد الدروز ،
ليستبدل بها مواد اولية يعبىء بها مركبه ، كان عليه أن يكلف
تركيا أو يهوديا ، أو يونانيا مقيما في صيدا ، حيث تتم عمليات
الشحن وانزال البضاعة *

وذلك العميل ، يعطي التاجر قائمة بمقدار البضاعة التي يريد
بيعها بعد أن يكونا قد اتفقا على رسوم السمسرة ، ويدفع له في
مقابلة ذلك المبلغ الذي يراه ضروريا *

والعميل كذلك ، تأكيداً لاماتته ، يعطيه وصولاً بقيمة
البضائع التي تسلمها ، كرهن على ما اوكل اليه بيعه ، ثم ينصرف
الى القيام بمهمته *

ومن انعام النظر في هذا النوع من التجارة ، فدرك الصعوبات
والاخطار التي يتعرض لها التجار * واليك ايضاحها *
لم يكن الدروز يتعاطون الكتابة في عمليات البيع والشراء ،
لذلك كان لزاما عليهم الاعتماد على الوكلاء في أمور السندات *
والذي يزيد في شدة الضرورة الى العملاء ، هو أن الدروز لا

يمكن اقناعهم ، باية وسيلة كانت، بأن في الناس من يغش ويخدع،
وهم الذين ليسوا على علاقة بمن يقابلون الثقة بالخيانة النكراء .
ونحن لا نقول ، ان وجود عملاء مستقيمين أمر مستحيل ،
ولكن مما لا شك فيه ، أن أولئك العملاء ، ان لم يغشوا في
القوائم والبيانات فهم لا يتورعون أبدا عن أن يربحوا ست ليرات،
حسب عملتنا ، عن كل ليبرة من التحرير .

تلك قاعدة عامة ، يمارسها حتى الباشا نفسه ، وقد جعلتها
العادة والتكرار ، في عرفهم ، شرعية لا غبار عليها .
وانه لمن الحكمة عدم الاسترسال بالثقة الى الباشا ، فرذائل
المشترعين هي دوما فضائل في نظر الجماعة ، وهل يرجى خير من
الحاكم الذي تسيره المنفعة ، فيؤمل منه الابتعاد عن تلك الفضائل
المزعومة ؟ يستنتج من ذلك ، أن الاثراك المسلمين حتى المعتدلين
منهم ، وان كانوا يقلون غشا عن بني قومهم ، فانهم على كل حال،
يغشون في استمرار .

ويتبادر الى الذهن ، ان اللجوء الى تركي يدفع الثمن سلفا،
أمر يخلص التجار من ذلك المرض ، وهو ممكن ، لأن بين الاثراك
كثيرا من الاغنياء .

ولكن في ذلك أيضا ما يخيف ، فالتركي في مثل هذه الحال،
يقوم بالتجارة على حسابه الخاص ، اي أنه يتحمل خطر الخسارة،
فيفرض الثمن على هواه ، او يتعلل بالديون التي يفترض دفع
فوائدها ، وقد يستدين فعلا من اليهود الذين لا يقرضون مالا الا
بفائدة قدرها اربعون للمئة عن كل ثلاثة أشهر .

كل هذه الاحمال تقع على عاتق الاجنبي ، الذي لا يمكن
والحالة هذه ، الا أن يؤثر فحش الفوائد في تجارته .

أن اليهود واليونانيين ، الذين يجتريحون هذه الجريمة، ليس لهم أي مورد للرزق غير الربا، يتخذون منه تعويضا عن الاعتداءات التي تصيبهم من الباشوات . لذلك كان من الافضل ان يتخذوا عملاء ، بدلا من الاتراك .

في مثل هذه الحالات البشعة ، لا ينتظر الا الزيادة في الدفع، وتجمل الفوائد ، والبيع بأسعار فاحشة .
وهناك ايضا ما هو ابشع من ذلك ، اذ ما اكثر ان يتوارى الاتراك واليونانيون عن الانظار ، بعد أن يزوروا سندات يقدمونها الى التجار ، تأمينا على البضاعة التي يتسلمونها .

وفي مثل هذه الاحوال ، ليس سلوك الطريق الى محكمة الباشا بالأمر العسير ، ولكن عدالة الاحكام ليست دائما مضمونة، لان للعدالة هناك ثمننا غاليا ، فعلى الشاكي ان يبذر المال دون حساب ، لذلك كان من الافضل أن يلجأ الى التراضي بدلا من اقامة الدعوى على العميل الخائن ، لان هذا الاخير لا بد ان يكسب قضيته لكثرة ما له من اصدقاء ، ولقرط ما يبذر من أموال .

المدى الذي يمكن ان تلبفـــــــــــــــــه تجارة الدروز

ان الاضرار التي نشأت عن حاجة التجار الى وساطة العملاء المشبوهين ، هي في الحقيقة السبب الذي منع تجارنا من الاهتمام بالتجارة بقدر ما كان يجب . ومن التوسع الذي كان عليهم ان يحققوه في وقت قصير ، لو ان التعامل التجاري مع الدروز يجري مباشرة ، وبسهولة ، كما كانت الحال أيام فخرالدين .

ان تلك التجارة تقتصر اليوم على الحرير الذي يأخذ المصريون منه اجوده لانهم اول من يعمدون الى الاختيار ، اما الباقي فتأخذه شركات مقيمة في بيروت ، وقد تحصل على الموسم كله اذا ادت الى الامير بعض الخدمات .

اما عملاؤنا فيشترون الحرير ، غالبا ، من هذه الشركات ، وهذا يعني بالطبع ، ارتفاعا في الاسعار يتحمله تجارنا ، وربحا مضاعفا يحصل عليه العملاء .

كل هذا يؤثر في معاملتنا وعملياتنا ، وتجارنا بنوع عام ، ويسبب لنا اضرارا شديدا .

ويستخرج كذلك من بلاد الدروز ، القطن والرماد ، وتجارة هذين الصنفين يؤمل لها تقدم كبير ، وجني فائدة عظيمة .

لندخل في التفاصيل ، كي ندرك كيف يمكننا ان نجعل من تجارة الدروز ، فروعاً عدة لتجارتنا .

يؤلف الحرير الفرع الاول ، لان موسمه اكبر موسم فني بلاد الدروز ، وجودته التي تفوق جودة حرير الهند والعجم وجميع مقاطعات الشرق ، جعلت المصريين يتسابقون اليه برغبة وشوق ، لانهم الوحيدون الذين يعرفون صناعته ، ويجيدون فن

غزله •

ويقدر ما ينتج منه ، بـ ٧٠٠ ألف ليبرة في العام في حال
اقبال الموسم ، ومن ٥٠٠ الى ٦٠٠ ألف في الموسم العادي •
يقطف الحرير في شهر أيار ، ويباع في شهر أيلول • وفي
الفترة التي تفصل بين هذين الشهرين ، يلجأ الملاكون الى جني
القطن ، وغزله ، واعداده على الشكل الذي يريده الصانع ،
حتى اذا حل شهر أيلول اذاع الامير ، بيانا يعين فيه سعر الحرير
المتناسب مع اقبال الموسم او عدمه •

ويحق للمالك ان يبيع بسعر يفوق السعر الذي اعلنه الامير ،
اذا وجد وسيلة الى ذلك ، ولكن يحظر عليه ان يبيع دون السعر
المحدد ، وهو يملك الحرية ايضا في الاحتفاظ بموسمه اذا شاء ،
اذ ليس هناك ما يرغبه على بيع غلته ، لان ارادته تقوم مقام القانون
من هذه الناحية ، فارادة الامير اذا ، عاقلة ، حكيمة ، وهي مبنية
على اساس منفعة المواطنين باجمعهم ، وتلك الارادة التي لا تمس
حرية الفرد ، هي الوسيلة التي تحقق جشع الشارين وتقضي على
حيلهم ، اولئك الشارين الذين يحاولون ، بكل ما أوتوا من دهاء ،
غش الشعب الذي يجهل أمور التجارة •
والقطن لا يقل منفعة عن الحرير ، ولا يقتصر استخدامه على
صناعة القتائل •

واذا كان الدروز ، وهم ليسوا على براعة في الصناعات ،
يفزلون القطن لينسجوا منه أقمشة صالحة لاشرعة البواخر ، فاننا
دون شك ، نستطيع ان نطور هذه الصناعة فنجعلها تلائم اذواقهم ،
وتتفق مع طرق استعمالها عندهم ، لنعود بعد ذلك فنبيعهم ما
أخذنا منهم •

ومما لا ريب فيه أن قطن الدروز أقل جودة من القطن
الأميركي ، ولكن كما قال أحد الكتاب :
« ليس نوع المادة هو الذي يفرض السعر ، وإنما ملاءمته
للاستعمال » .

أما العسل والشمع فهما الفرع الثالث الذي لا يقل أهمية
عن الفرعين الأولين (١) ، حتى أن الشمع منذ انتشار الترف عندنا ،
أصبح كثير الاستعمال في أوروبا ، وهو على قلة في البلاد التي
يظن الجباة فيها أنهم يخدمون الحكومة باحتكار القفران .
وإذا كنا لا نأخذ من خمور بلادهم المقادير الكبيرة التي
يمكننا الحصول عليها ، فلأننا نجعل في أوروبا ، ميزات تلك
الخمور ، وجودتها ، ولذتها . وصعوبة نقلها هي التي تمنع تجارنا
من تحمل اعباء شحنها .

ولكن مهما كانت تكاليف النقل ، فمن الممكن جدا أن تتعود
البيوتات المترفة تذوق هذه الخمور . والدليل على ذلك ، أن
الأغنياء من العامة ، لا يتوانون في التمتع منها .
ويكتفى اليوم باستيراد بعض تناج العنب من دمشق ، مع
تجاهل السبب الذي يؤدي إلى تطور الخمور ، وانتشارها .
أما القمح ، فالأجبار به مفيد ، لأن وفرة الغلال منه في منطقة
ما ، يقابلها قحط في منطقة أخرى ، فإذا حل القحط مثلا في المنطقة
الجنوبية من فرنسا ، ألا تكون سهول لبنان مثلا الوسيلة المضمونة
لتأمين ما تحتاجه تلك المنطقة من القمح ؟

وكذلك الحال في تجارة الاثمار ، فهذا النوع من التجارة
ليس مجهولا منا ، فلو اعتبرنا افتقار أكثر جهات أوروبا إلى

الحرير والقطن .

الاثمار ، والمحصول الوافر الذي تنتجه جبال لبنان وسهله منها ،
لادركنا الميزة التي تتمتع بها اثمار لبنان ، وتفضل بها ثمارنا .
أما المن فهو من الاشياء المستخدمة في الطب، ويستعمل في
كل مرض ومن الممكن جعله مادة مهمة ، تمنون الدول المجاورة (١)
وملح البارود ، وان كان يوجد في بلدان كثيرة ، الا ان هناك
أوطانا تفتقر اليه ، وتضطر الى استيراده من أماكن بعيدة ، وبأسعار
فاحشة .

ولكي ندرك اهميته للدولة التي تملكه - سواء أكانت
تستخرجه من ارضها أو تجلبه من مكان آخر - يكفي ان نعرض
خصائصه ، وتنوع نواحي استعماله .
وكل ما يحقق الكسب ، ويدعو اليه ، هو هدف التاجر .
فمضاعفة الربح هو مقياس التجارة .
أما الرماد الذي تكلمنا عنه من قبل ، فهو جدير بالنظر ،
ويبدو ان وجوده يقتصر على بلاد الدروز ، فاهل البندقية يسعون
اليه باهتمام ، ليستثمروه في معاملهم ، محققين منه منافع جمة .
ويمكننا من ذلك الاستنتاج ان فرصة ، اذا أعثت به ،
وعرفت كيف تستخدمه ، حققت ثروات جديدة ، ضرورة .
ويمكننا ايضا الاستفادة من خيولهم التي لا تجاريها خيولنا
في الخفة والضمور . ونحن نفتقر كذلك الى جلود الدببة والنمور ،
فجلد النمر لا يساوي عند الدروز أكثر من اثنتي عشرة ليرة حسب
عملتنا ، وهذه التجارة متعلقة باعمالنا ، ونستخدمها نحن ، كما
يستخدمها كثير من الشعوب التي تستطيع أن تؤمن حاجاتها من

لم يكن لبنان ، كما نعلم مشهورا بانتاج المن ، الذي اشتهر به
العراق فقط من البلاد العربية .

• تلك الجلود • (١) •

ان هذه المواضيع المتعددة ، تؤلف أمرا مهما خليقا بالاهتمام الذي يجب ان يتضاعف يوما فيوما ، لان تلك التجارة تؤمن لنا التجارة مع بلاد فارس ايضا •

لحظنا من قبل أن أمير الدروز هو حامي الموارد والمسلمين على السواء وان حامل حلقة يمكنه الانتقال في أرضهما بكل أمان وسلامة •

ويجدر بنا هنا أن نضيف : ان بلاد فارس المتاخمة للجزيرة العربية والتي تربطها بها وحدة واتصالات ، يسهل علينا الدخول اليها وتأسيس تجارة فيها ، وجعل الفرس يفضلوننا على المصريين في بيع المحاصيل •

ومن الافضل للفرس أن يتعاملوا معنا ، بدل أن ينزلوا بضائعهم الى « هرمز » (٢) نعم من الافيد لهم ان يأخذوا من الدروز أو الاوروبيين ما يحتاجونه من الاشياء التي لا يحصلون عليها الا بواسطة اليهود ، أو اليونانيين أو الاتراك الذين ينقلون اليهم تلك الحاجات من مرفأ صيدا •

اما الجزيرة العربية ، فصحيح أنها تعطي قليلا ، وأن شعوبها

لم تبق غابات لبنان ، كما كانت ، ماوى للنمور والذئبة وغيرها مع انها كانت تعج بانواع الحيوانات ، لدرجة ان الناس كانوا يتحاشون التوغل في الاحراج . ولكن الوحوش اخذت نقل منذ كثر السلاح الحديث بين ايدي السكان واتسعت شبكة المواصلات فاشتدت الحركة وعم العمران حتى في المناطق الحرجية ، وكثر استعمال وسائل النقل الحديثة .

هرمز ، مدينة ذات مرفأ في ايران ، موقعها عند مدخل الخليج العربي ، كانت ترسو فيها المراكب المسافرة من آسية الغربية الى الهند . وهي تؤلف مضيقا يسمى « مضيق هرمز »

قليلة الحاجات ، ولكن الجزء الذي يقطنه الموارنة من سورية ، غير متناهي الانتاج .

منافع التجارة المباشرة مع السدروز

منافع التجارة لا تقاس بالارباح التي يحصل عليها بعض الافراد ، وانما ينظر اليها من حيث نفعها للدولة ، وبالنسبة الى الثروات التي توفرها للبلاد ، والى القوة التي تمنحها للحكومة . هذه هي الاسس التي يجب ان تعتمد في التجارة . ان الثمنون ، بمقادير كبيرة من المواد الاولية ، هو من اهم ما يجب أن توجه اليه العناية ، فمن هنا تنبع الثروات الضخمة ، وتزدهر الفنون ، وتحقق المعامل تقدمها وغناها .

والاشغال التي توفرها هذه المواد للشعب ، هي عامل قوي في تقدم الصناعة ولذلك تثير المنافسة وتزيدها حدة ، حتى اذا بدأ الرواج - وهذا ما يحدث دائما حيث تفيض المواد الاولية وينشط الاهلون - تحركت على أثره كل الفئات والاجزاء لتبادل الحركة ، وقوي التشجيع لاصابة نجاح مماثل بحيث يكون كنقطة الدائرة .

وقد أصاب أحد الكتاب المحدثين في قوله : « ان المعامل غذاء العملة » . وبلاستطاعة القول ان مكاسب الزراعة تزداد كلما كانت أعمال المعامل ضخمة وثابتة .

ومقاصد الناس تسيرها الرغبة الطبيعية في الحصول على العيشة الهنية ، ولذلك فالمنافسة تنشط في كل مكان تتوافر فيه الارباح والفوائد ، والحاجات تتسع وتفيض ، كلما تضخمت الارباح ، مهينة السعة ، مؤمنة العمل الثابت المنتج .

وهكذا ، يزداد الاستهلاك ، وترتفع اسعار السلع ولكن بتوازن منسق ، ممتاز .

فمقدار المواد الاولية ، ليست اذا مضرة للدولة ، كما يشاء بعضهم ، في بعض الاحايين ، ان يصوروه ، بل على العكس تماما . فالاجانب يهرعون الى بلد ما ، متسابقين الى العمل فيه ، بقدر ما تستطيع الدولة أن توفر العمل ولاكبر عدد من الاشخاص . وفي هذه الحال ، يتدافع اليها العملة الاجانب ، منضوين تحت لوائها لانهم يجدون فيها معيشتهم ، وثقتهم بتحقيق ثروة مضمونة .

في مثل هذا الجو الملائم تسير الفنون نحو الكمال . وهل هذا التطور ، هو للدولة غير منبع ثروة طائلة ، ثابتة ؟ والمال الخارجي ، لا تحصل عليه الا الدول التي تعرف كيف تستولي على المواد الاولية في البلاد المجاورة وهي ، لا يسعها الا التسابق للحصول على تلك المواد من اجل تموين ، معاملها ، أو ، على الاقل ، لاتخاذها متما لما تملك هي في أرضها .

لنتأمل هذه القضية من الوجهة السياسية ، ولنسمح لانفسنا بالسؤال عن السبب الذي يولد تدمير الشعب وشكواه وانشقاقه وتمرده ، ولتكن اجابتنا صادقة ، صريحة ، متخذة ما تصوره لنا الحوادث المختلفة من خطوط وعبر ، قاعدة أساسية وعندئذ تتفق جميعنا على الاجابة ، بان لا شيء يوسع شقة الشقاق كالبطالة ، والعجز عن تأمين حاجات المواطنين .

فاذا قضينا على البطالة ، ووفرنا للمواطنين اعمالا تتفق وميولهم ، مسهلين لهم القيام بها ، موزعين المكافآت حسب الاجتهاد سادت عندئذ الاخلاق الرضية بفضل السعة ، وقام شعب مفيد ، مخلص ، لان ما يضره الشعب لدولته من الاخلاص يتوقف على

ما يتمتع به من الراحة والرفاهية *
بهذا ، يجد المواطنون انفسهم موجهين بحكمة وحسن ادارة ،
فيتم اتحادهم وتعاونهم *
وبهذا الاتحاد وحده ، تقوم الدولة على اقوى الركائز
وامتنها ، وتكون أمنع وأرهب جانبا ، مما لو كانت تملك عددا
ضخما من الفيالق المجهزة *

والشعب لا يكون ، الا كما نريد له ان يكون ، فلنفتح له
باب العمل كي يمشي طائعا لتحقيق الرغبة التي نريدها ، وبذلك
تقوى فيه المشاعر الوطنية ، وترسخ النزعة القومية في نفسه *
فلندرس ، بناء على هذه النظريات ، حاضر تجارة الدروز
التي وان كانت اليوم محدودة ، فانها ما زالت تفتح لنا مجالا للربح ،
وتحصيل الثروة ولنبن درسنا على الاراء التالية ولنعطها اهتمامنا
وانتباها *
وانتباها *

كانت تجارة الدروز ، أيام فخر الدين ، تقوم كليا على التبادل ،
وكان الدروز لسنوات خلت ، يتبنون تلقائيا الذوق الاوروبي ، اذ
لم يكن عندهم معامل ، وان كانوا على المام قليل بالفنون ، ولذلك
فهم بحاجة الى معوتتنا الصناعية *
يستنتج من ذلك ، أن علينا ان نضاعف ايفاد البعثات ،
ونجعلها لا تقتصر على الاجواخ التي لم تبق البضاعة الوحيدة التي
تلائمهم ، وان نجعل المبادلة على مستوى غلالهم ، اذا كنا حقا نريد
ان نحصل على كل ما يفيض عنهم *
ان أكبر عقبة في طريق تطور هذه التجارة هي ، بلا شك ،
الحاجة الى استخدام العملاء ، وهذا هو السبب الذي يفرض
علينا ان نحمل اليهم المال *

ولكن هذه القضية ليست من الصعوبة بحيث لا تترك مجالا للتغلب عليها ، فالانكليز الذين تمكنوا من نيل الخطوة عند الدروز على حسابنا ، توصلوا الى تذليل الصعوبات على مراحل ، فأدخلوا الى دمشق وكيلا عن أمتهم ، وعرفوا كيف يكسبون فوائد لا نهاية لها ، لم يستطع غيرهم من الاوروبيين ان يحققها .

ويمكننا أن نقوم بخطوة أفضل من خطواتهم ، لانهم مرغمون على ان يتعلقوا بالبasha ، اذا شاؤوا استمرار بقاء وكيلهم في دمشق ، والبasha ، من هذه الناحية ، يستحيل عليه أن يغمض عينيه عن أية شاردة أو واردة ، لان عوامل كثيرة تجعله متيقظا لا يغمض له جفن .

أما الفرنسيون فعكس ذلك ، لهم وكيل في بيروت ، ويسمح لهم بأن يبقوه فيها دون ان يكون للباب العالي ، ولا لاية قوة ، ان تعترض على ذلك ، ولو بطريقة غير مباشرة .

وهذا الوكيل ، الذي هو عربي ، ليست له أية فائدة ، كما انه لا يتمتع بالمنزلة الكافية ، ولا بالكفالات ، ويدير التجارة على حسابه الخاص أكثر مما هو على حساب الامة التي لا تمنحه الكفالة الحقيقية الكافية .

وهو ليس في الحقيقة ، سوى عميل باع نفسه لمصالح قنصل صيدا الذي له ، عن طريقه ، حصة في السمسة .

ولهذا ليس أمامنا الا التوصل الى جلالة الملك الذي يضر له الامير وشعبه ، اعلم التقدير والاحترام .

ومهما يكن الامر ، فمن الممكن ان تحظى أمة واحدة ، دون غيرها ، بتجارة الدروز ، وليس أسهل على المملكة الفرنسية من تعاطي تلك التجارة ودعها .

والتوائد التي تنتج عن ذلك ليست غامضة ولا مجهولة ،
فالدروز من ناحيتهم ، حين يتناولون بضاعتنا بأيديهم ، يحصلون
على الأقل ، على أرباح العملاء ، وتلك الأرباح تسمي بالنسبة اليهم
فرصة لزيادة الاستهلاك .

اما من ناحيتنا ، فنسقط التجارة التي تتقاسمها الامم الان في
تلك البلاد ، نحدد القانون للذين يفرضونه علينا بهذا الخصوص .
وبتمويننا الشرق على هذه الطريقة ، نتوصل بسرعة الى
تموين اوروبة .

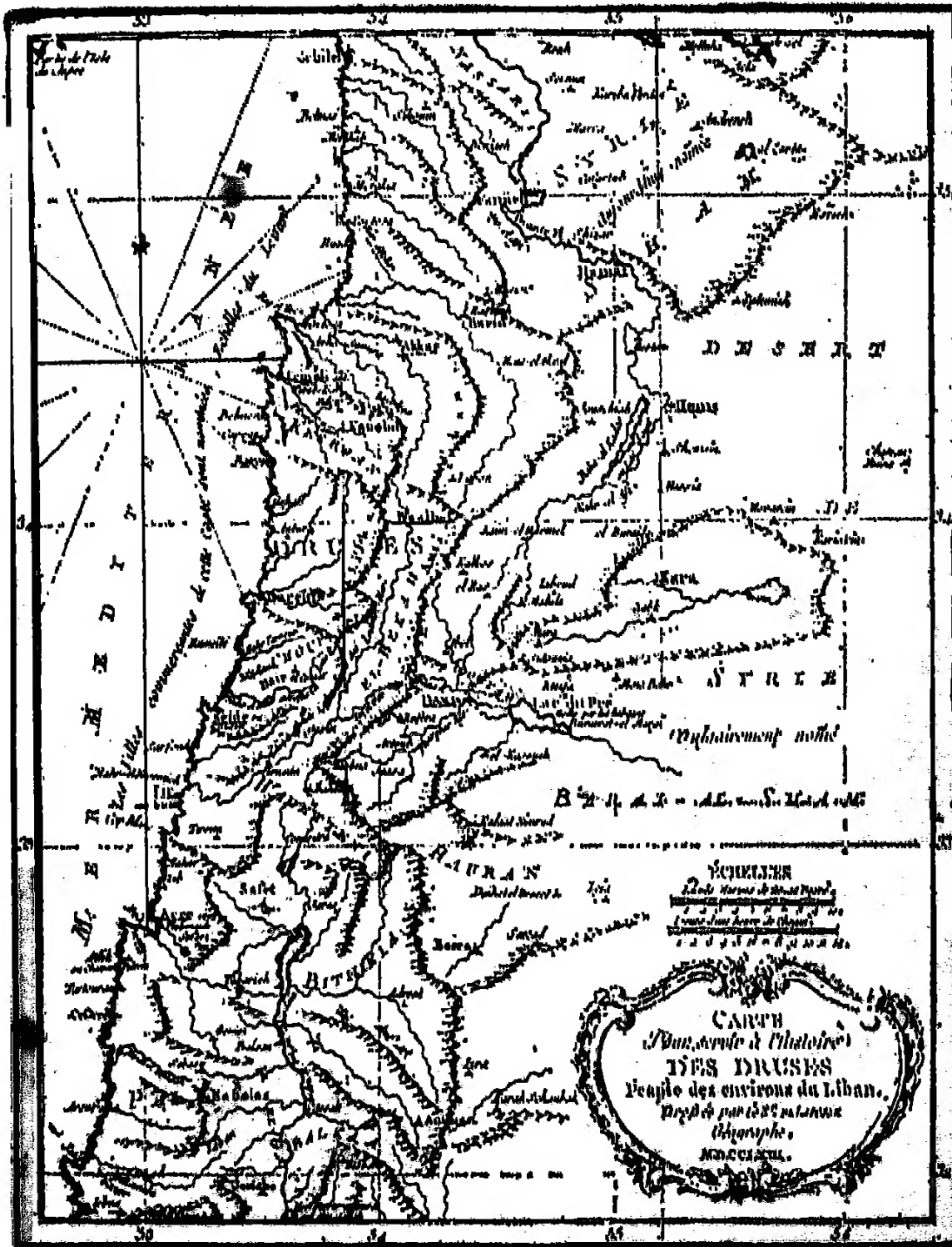
فالحري وحده - دون التحدث عن الغاء الحق الذي علينا
ان نخضع له تجاه العملاء - ينتج للدولة أرباحا سنوية تقدر
بملايين عدة ، ونحن نقول الدولة ، لان المال الذي يخرج منها ، ولو
الى الافراد ، ولا يعود اليها ، انما هو خسارة حقيقية لها ...
خسارة محتومة تحدث نقصا في رأس المال العام .

ان السبب الذي يمنعنا من ان نحصل على مقادير وافرة من
هذا الحري ، لا يبدو واضحا كي نتوقف عنده ، ويقال ان هذا
الحري يفوق بجودته كل انواع الحري ، ولكنه لا يناسب ، من
حيث النوع مصانعا ، وهذا التفوق في الجودة الذي يجعل
المصريين يتهافتون عليه ، هو بالتأكيد ما يرتفع به عن ازيائنا
واذواقنا .

غير ان عندنا من دقة الفن بالصناعة ما يمكننا من ان نرتفع
بصناعة الحري الى المستوى الذي تؤمنه المصانع المصرية .
وهل يجوز لنا ، ان نياس من التوصل الى الاجادة التي
تحققها معامل القاهرة ، اذا كنا نرغب في أن نجعل الذين يمتقنون
طرازنا ، يهرعون الى اقتناء منسوجاتنا من الحري ؟

لذلك يجب علينا ان نحصل على أكبر مقدار من الحرير ، اذ في مثل هذه الحال الحاضرة ، تستطيع ، بلا شك ، الدولة التي تملك أكبر قسط منه ، ان تتوصل الى امتلاك نبع غزير من الثروة . فاذا ألحنا في القول ، أن الامة التي تتعاطى وحدها التجارة المباشرة مع الدروز ، وتدعمها باستقامة أكثر من التي عملنا بها نحن في الماضي ، في تلك البلاد ، هي التي تجلب الغنى لمصانعها على حساب مصانع جيرانها الذين يضطرون عند ذلك ، ليس فقط الى أخذ المواد الأولية منها ، بل الى أخذ البضائع التي تنتجها تلك المصانع ايضاً ، وهي بذلك تستدر مال الاجنبي ، وتحصل على خيرة العملة .

ان السبب في غنى هولندية ، هو ان تجارها يتعاطون كل انواع التجارة ، فيمونون الشعوب الاخرى التي لا تملك مثلها (اي هولندية) الذكاء في الصناعة والاقتصاد والصيانة . واليهود هم الذين يستأجرون ، في الوقت الحاضر ، مزارع امير الدروز ولكنهم لا يملكون الوسائل السهلة لايداء الشعب الدرزي الذي لا يقل كرهه لهم عما كان كرهه للعشارين في الماضي وانه لامر سيء لا مهرب من مواجهته ، ان يكون الذين يجبون الضرائب ، في كل الامم ، هم موضوع الكره والمقت من العموم ، كما هم موضوع ريبة عند الامراء الصالحين . من هنا يمكننا أن نحكم ، هل يصعب على تجارنا ان يؤسوا مكاتب لهم في تلك البلاد ، بدلا من اليهود . ان ذلك في الحقيقة ، لا يمكن ان يتم ، الا اذا تدخل القصر — كما فعل — في بعض الامور . ولكن طيبة الملك وحكمته ، وصلات وزرائه ، هي الضمانة الكفيلة بالحماية الضرورية .



المكتبة الحديثه للطباعة والنشر
بيروت - تشايع سوليتا - تليفون: ٢٣١١٦٨

الشمس ١٠ ل. ل.

To: www.al-mostafa.com